مسابقة

الوحيين

مسابقة الوحيين السابعة
لحفظ القرآن الكريم والسنة النبوية

المحور الثاني

سورة إبراهيم

١٤٤٥هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مسابقــة الوحــيين السابعـــة
لحفظ القرآن الكريم والسنة النبوية

سورة إبراهيم

التذكيرُ بنِعَمِ الله على الناسِ، وتحريضُهم على
شُكرِها، وتحذيرُهم مِن جُحودِها وكفرِها.

المادة العلمية لمسابقة الوحيين السابعة
نادي النورين
١٤٤٥هـ

الفهرس

تفسير السورة

	الصفحة		الصفحة
المقدمة	١	المقطع الخامس (الآيات: ١٩-٢١)	٢٨
ما مسابقة الوحيين؟	٢	المقطع السادس (الآيات: ٢٢-٢٣)	٣٢
محتوى الكتيب وأهم المراجع	٣	المقطع السابع (الآيات: ٢٤-٢٧)	٣٦
التعريف بالسورة	٤	المقطع الثامن (الآيات: ٢٨-٣١)	٤٣
المقطع الأول (الآيات: ١-٣)	٥	المقطع التاسع (الآيات:٣٢-٣٤)	٤٧
المقطع الثاني (الآيات: ٤-٨)	٩	المقطع العاشر (الآيات: ٣٥-٤١)	٥٢
المقطع الثالث (الآيات: ٩-١٢)	١٦	المقطع الحادي عشر (الآيات: ٤٢-٤٦)	٥٩
المقطع الرابع (الآيات: ١٣-١٨)	٢٣	المقطع الثاني عشر (الآيات: ٤٧-٥٢)	٦٤

قصص الأنبياء

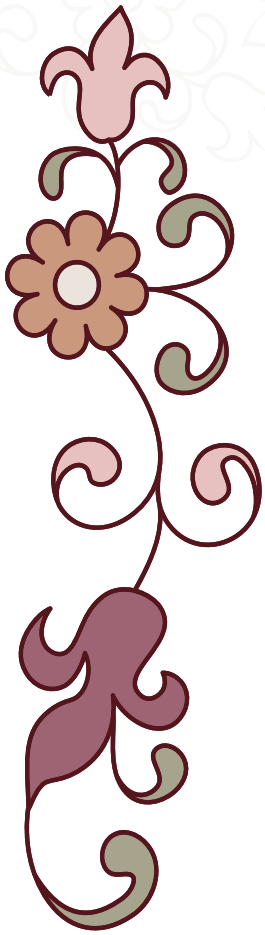

	الصفحة
قصة موسى عليه السلام	٧٠
قصة نوح عليه السلام	١٢٠
قصة إسماعيل عليه السلام	١٣٣
قصة هود عليه السلام	١٣٦
قصة صالح عليه السلام	١٤٤
قصة إبراهيم عليه السلام	١٥٧

المقدمة

الحمد لله واهب النعم، دافع النقم، منجي العباد من الظُلم، والصلاة والسلام على هادي الأمم، خير الورى محمدٍ ﷺ وعلى آله وصحبه، وبعد:

خلقنا الله سبحانه لعبادته، قال جل وعزّ: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)، ومن كمال حكمته ورحمته أن شرع لنا سبل العبادة التي يرتضيها، وأظهرها لنا كاملةً في مصدرَي التشريع الإسلامي: (كتاب الله وسنة رسوله ﷺ).

أكمل لنا فيهما ديننا وأتمّ علينا بهما نعمته، وجعل فيهما هداية الضال ورشاد الحائر وجواب السائل وأمان الخائف وحفظ الأرواح والأبدان، من تمسك بهما فاز وظفر، وغنِم وسَلِم، ومن أعرض عنهما فاتته حظوظ الدنيا والآخرة.

هما سبيل الهداية من الفتن والثبات على الصراط المستقيم، وأعظم طريق يدل على الله بأسمائه وصفاته وعظيم فعاله.

لذا كان لزامًا على كل عاقلٍ أن يلازمهما ملازمة الغريم لغريمه.

ومن هذا المنطلق أُطلقت مسابقة (الوحيين)، لتكون عونًا لكِ على تدبر الكتاب والسنة، وحفظهما والعمل بما فيهما.

ومن هُنا، تشرف جامعة الإمام عبد الرحمن بن فيصل، متمثلةً بنادي النورين، بإقامة مسابقة الوحيين لعامها السابع بمشيئة الله.

ولذلك؛ أُعِدّ هذا الكُتيّب الخاص بسورة (إبراهيم) إحدى محاور المسابقة، والذي يخولك الارتواء من معين السورة، وفَهمًا لتفسيرها وقصص الأنبياء فيها، واستخراج المعاني من أحاديثها... وغير ذلك.

ما مسابقة الوحيين؟

مسابقةُ الوَحيَيْن هيَ مسابقةٌ سنويَّة، يُقيمها نادي النورَيْن، التابع لجامعة الإمام عبد الرحمن بن فيصل؛ تُتيح فرصة التنافُس في حفظ القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية، بين طالبات الجامعة.

تهدف المسابقة إلى تشجيع المُشارِكات على حفظ القرآن الكريم وفَهمه وتدبُّره، وفهم قصص الأنبياء فيها، والاستشهاد بالسُّنَّة النبويَّة واستخراج المعاني منها؛ وذلك من خلال ثلاث سورٍ مختارة، مع مادة تدبُّريَّة مُعَدَّة لكل سُورة، تكونُ مرجعًا للمتسابقات وعليها يقوم التنافس.

وبتوفيق الله ومنِّه، تتجدد المسابقة في دورتها السابعة لهذا العام ١٤٤٥هـ، برعاية كريمة من معالي مدير الجامعة: د.عبدالله بن محمد الربيش حفظه الله.

سُور مسابقة الوحيين السابعة ومحاورها:

١- **المحور الأول: (سورة الأنبياء):** وفيها بَيانُ مَعالِمِ التَّوحيدِ، وإقامةُ الأدلةِ عليه، وما لقِي الأنبياءُ في سبيلِ الدعوةِ إليه، وإثباتُ المعادِ، وبيانُ الأدلَّةِ على وُقوعِه.

٢- **المحور الثاني: (سورة إبراهيم):** وفيها التذكيرُ بنِعَمِ الله على الناسِ، وتحريضُهم على شُكرِها، وتحذيرُهم مِن جُحودِها وكفرِها.

٣- **المحور الثالث: (سورة ص):** وفيها إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى وقُدرته، وعلى صِدقِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّ البَعثَ حَقٌّ، مع الرَّدِّ على شُبُهاتِ المُشرِكينَ.

وللمزيد عن المسابقة:

يُرجى مُتابعة مُغرِّد نادي النوريَن Nourainclub

محتوى الكتيب وأهم المراجع

١- **التعريف بالسورة**، ويشمل: (اسم السورة، ونوعها، وفضلها، ومحورها، وموضوعاتها).

٢- **آيات المقطع**.

٣- **بيان غريب الآيات والتفسير**، واعتُمِد فيهما على كتاب: التفسير المحرر.

٤- **الفوائد التربويَّة:** وتشمل كل ما يتعلَّق بالسلوك والأخلاق، وعرض النَّفس على الآيات ومُحاسبتها، واعتُمِد فيها على كتاب: التفسير المحرر.

٥- **قصص الأنبياء:** اشتملت السور الثلاث على قصص الأنبياء عليهم السلام، واعتُمِد فيه على كتاب: فبهداهم اقتده لـ د. عثمان الخميس، وكتاب: القصص القرآني لـ د. صلاح الخالدي.

٦- **خاتمة السورة**.

أخيرًا...

شرف التنافس بشرف ما نتنافس لأجله، فهنيئًا لكِ تنافسكِ في هديِ الآي والسُّنَّة.

استحضري أخلَصَ النوايا فهي محل نظر الله سبحانه، واستعيني به لبلوغ أعلى الدرجات في الدَّارَيْن.

ألبسكِ الرحمن بالوحيَيْن الحُلل، و أسكنكِ بهما الظُّلل، وأطاب بهما عيشكِ، وأقرَّ بهما قلبكِ.

التعريف بالسورة

سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بسورةِ (إبراهيم).

بيان المكي والمدني

سورةُ إبراهيمَ مكِّيَّةٌ، وحُكِي الإجماعُ على كونِها مكيةً إلا آيةً منها، وقِيل: إلا آيتينِ.

مقاصد السورة

من أهم مقاصد هذه السورة: التذكيرُ بنِعَمِ الله على الناسِ، وتحريضُهم على شُكرِها، وتحذيرُهم مِن جُحودِها وكفرِها.

موضوعات السورة

من أهمِّ الموضوعاتِ التي تناولَتْها هذه السُّورةُ

١- ذِكرُ القُرآنِ الكريمِ، وأنَّه كِتابُ هدايةٍ وبَيانٍ، وذِكرُ مُلْكِ الله سُبحانه للسَّمواتِ والأرضِ، وأنَّه أرسَلَ الرُّسُلَ بلِسانِ قَومِهم؛ لِيُبَيِّنوا لهم مُرادَ الله سُبحانَه.

٢- ذِكرُ قِصَّةِ موسى عليه السَّلامُ، ونِعمةِ اللهِ على قَومِه إذ أنجاهم مِن آلِ فِرعونَ، وذكرُ أخبارِ بعضِ الأنبياءِ مع أقوامِهم، ونماذجَ مِن المحاوراتِ التي دارتْ بينَ الرسلِ وبينَ مَن أُرسِلوا إليهم، وجزاءِ اللهِ تعالى للظَّالمينَ المكَذِّبين.

٣- المحاجَّةُ بين أهلِ النَّارِ الضُّعَفاءِ والذين استكبَروا، ومجادلةُ الشَّيطانِ لهم في النَّارِ، ثمَّ ذِكرُ حالِ أهلِ الجنَّةِ وما لهم من النَّعيمِ المُقيم، ثم ذِكرُ مثَلٍ لكلمتَيِ الإيمانِ والكفرِ، ثمَّ ذِكْرُ حالِ الكُفَّارِ؛ فقد بدَّلوا نِعمةَ اللهِ كُفرًا، وأحَلُّوا قَومَهم دارَ البَوارِ، وذِكرُ المؤمنينَ الذين لم يُبَدِّلوا نعمةَ اللهِ كُفرًا، وأقاموا الصَّلاةَ، وأنفَقوا ممَّا رزقهم الله سرًّا وعلانيَةً.

٤- ذِكرُ بعض نِعَمِ الله تعالى على خَلقِه.

٥- خبرُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ وعبادتِه لله سبحانِه وتَركِه لعبادةِ الأصنامِ، ودَعوتِه لذُرِّيَّتِه بسَعةِ الرِّزقِ، وتَضَرُّعه إلى اللهِ سبحانه، ثمَّ بيَّنَ مُهِمَّةَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهي النِّذارةُ بيومِ القيامةِ.

٦- وخُتِمت السورةُ بآياتٍ فيها مِن التحذيرِ والوعيدِ، وذِكرِ أنواعٍ مِن العذابِ مما أعدَّه للظالمين، وذَكَر سُبحانَه أنَّه في يومِ القِيامةِ يكونُ الجزاءُ، فتُجزَى فيه كلُّ نفسٍ بما كسَبَت، فهو سريعُ الحِسابِ.

المقطع الأول

الآيات: ١-٣

﴿الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾

تفسير الآيات

﴿الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١)﴾.

﴿الَر﴾.

هذه الحروفُ المقطَّعة التي افتُتِحَت بها هذه السُّورة وغيرها، تأتي لبيان إعجازِ القرآن؛ حيث تُظهِر عجْزَ الخَلْق عن معارضته بمثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ من هذه الحروف العربيَّة التي يتحدَّثون بها.

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾.

أي: هذا القُرآنُ كتابٌ عظيمٌ أنزَلْناه إليك -يا مُحمَّدُ- لتُخرِجَ به النَّاسَ -عربَهم وعَجَمَهم- مِن ظُلماتِ الكُفرِ والجَهلِ والمعاصي إلى نورِ الإيمانِ والعِلمِ والطَّاعةِ، وذلك بإرادةِ اللهِ تعالى وتوفيقِه لهم؛ فهو الهادي لِمَن قدَّرَ له الهدايةَ على يَدَي رسولِه المبعوثِ عن أمرِه سُبحانَه.

﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.

أي: لتُخرِجَ النَّاسَ مِن الظُّلماتِ إلى النُّورِ الذي هو طريقُ الحَقِّ الواضحِ المُستقيمِ الذي نصَبَه اللهُ لعبادِه، وجَعَله مُوصِلًا إلى العزيزِ الذي لا يُمانَعُ ولا يُغالَبُ، المُستحِقِّ وَحدَه لكمالِ الحَمدِ في جميعِ أقوالِه وأفعالِه، وشَرعِه وقَدَرِه.

﴿اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢)﴾.

﴿اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: أنزَلْنا إليك القُرآنَ؛ لتدعوَ النَّاسَ إلى سُلوكِ صِراطِ العزيزِ الحميدِ؛ اللهِ المُستحِقِّ للعبادةِ وَحدَه، الذي مِن صِفتِه أنَّه يَملِكُ جميعَ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ، والخَلقُ كُلُّهم مِلكُه وعَبيدُه.

﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

أي: وَهَلاكٌ وشِدَّةٌ لِمَن كَفَروا باللهِ وبِرَسولِه، مِن عذابٍ شديدٍ ينالُهم في الآخرةِ.

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣)﴾.

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾.

أي: وويلٌ للكافرينَ الذين يحِبُّونَ الحياةَ الدُّنيا، ويَختارونَها ويُؤْثِرونَها على الآخرةِ، فَرَضُوا واطمأنُّوا بها، وغَفَلوا عن الأعمالِ الصالحةِ التي تنفَعُهم في الدارِ الآخرةِ.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

أي: ويَصْرِفونَ النَّاسَ عن دينِ اللهِ، ويُريدونَ أن يكونَ مائِلًا عن الحَقِّ المُستقيمِ، بتَحريفِه وتبديلِه وغيرِ ذلك؛ لموافقةِ أهوائِهم وقَضاءِ أغراضِهم، ومنها تنفيرُ النَّاسِ عن طريقِ الحَقِّ.

﴿أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

أي: أولئك الكُفَّارُ -الموصوفونَ بهذه الصِّفاتِ- في ذَهابٍ بعيدٍ عن الحَقِّ.

الفوائد التربوية

١- قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ هذه الآيةُ دالَّةٌ على أنَّ طُرُقَ الكُفرِ والبِدعةِ كَثيرةٌ، وأنَّ طَريقَ الخيرِ ليس إلَّا الواحِد؛ لأنَّه تعالى قال: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ فعبَّرَ عن الجهلِ والكُفرِ بالظُّلماتِ، وهي صيغةُ جَمعٍ، وعبَّرَ عن الإيمانِ والهدايةِ بالنُّورِ، وهو لفظٌ مُفردٌ، وذلك يدُلُّ على أنَّ طُرُقَ الجَهلِ كثيرةٌ، وأمَّا طريقُ العِلمِ والإيمانِ فليس إلَّا الواحِد.

٢- قولُ الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: لا يحصُلُ منهم المرادُ المحبوبُ لله إلَّا بإرادةٍ مِن اللهِ ومَعُونةٍ؛ ففيه حثٌّ للعبادِ على الاستعانةِ بربِّهم.

٣- قولُ الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ في ذِكرِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ بعد ذِكرِ الصِّراطِ المُوصِلِ إليه، إشارةٌ إلى أنَّ مَن سَلَكه فهو عزيزٌ بعِزِّ اللهِ، قَويٌّ ولو لم يكُنْ له أنصارٌ إلَّا اللهُ، محمودٌ في أمورِه، حسَنُ العاقبةِ، ففي ذِكرِه تَنبيهٌ على أنَّه لا يذلُّ سالِكُه ولا يخيبُ سابِلُه، وترغيبٌ في سُلوكِه ببيانِ ما فيه مِن الأمْنِ والعاقبةِ الحميدةِ.

المقطع الثاني

الآيات: ٤-٨

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾

معاني الكلمات

بِأَيَّامِ اللَّه	أي: نَعمائِه وبَلائِه.
يَسُومُونَكُمْ	أي: يُولونَكم ويَبغونَكم.
وَيَسْتَحْيُونَ	أي: يَستبقُونهنَّ أحياءً.
تَأَذَّنَ	أي: أعلَمَ، وهو من آذنتُك بالأمرِ: أي أعلمْتُك.

تفسير الآيات

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤)﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾.

أي: وما أرسَلْنا رسُولًا إلى أمَّةٍ مِن الأُمَمِ إلَّا بلُغةِ قَومِه الَّذين أرسَلْناه إليهم؛ ليُفهِمَهم ويُوضِّحَ لهم أمرَ دينِهم.

﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

أي: فبعدَ البَيانِ وإقامةِ الحُجَّةِ عليهم يضِلُّ اللهُ من يشاءُ إضلالَه، فيخذُلُه عن اتِّباعِ الحَقِّ، ويُوَفِّقُ مَن يشاءُ هدايتَه إلى الحَقِّ، فالتَّوفيقُ والخِذلانُ بيَدِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

أي: وهو العزيزُ الذي لا يُغْلَبُ على مشيئتِه، فما شاءَ كان، وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ، ومِن ذلك مشيئتُه بالإضلالِ أو الهدايةِ، وانفرادُه بهما، وهو الحكيمُ الذي يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائقِ به، ومِن حِكمتِه أنَّه لا يضَعُ هِدايتَه ولا إضلالَه إلَّا بالمحَلِّ اللائقِ به، فيُضِلُّ من يستحِقُّ الإضلالَ، ويهدي مَن هو أهلٌ لذلك.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥)﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾.

أي: ولقد أرسَلْنا موسى بآياتِنا العظيمةِ الدَّالَّةِ على صِدقِه، وصِحَّةِ ما جاء به.

﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

أي: أمَرْنا موسى قائلينَ له: ادْعُ قومَك بني إسرائيلَ إلى طريقِ الحَقِّ؛ لِيَخرُجوا مِن ظُلماتِ الكُفرِ والجَهلِ والمعاصي إلى نورِ الإيمانِ والعِلمِ والطَّاعةِ.

﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾.

أي: وذَكِّرْ -يا موسى- قومَك بني إسرائيلَ بأيامِ نعمِ اللهِ وإحسانِه، وبأيَّامِ نِقَمِه وبَطشِه وانتقامِه؛ وذلك ليشكُروا اللهَ، ويَحذَرُوا عذابَه.

عن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّه بينما موسى عليه السَّلامُ في قَومِه يُذَكِّرُهم بأيَّامِ اللهِ -وأيَّامُ اللهِ: نَعماؤُه وبَلاؤُه- إذ قال ...)) **الحديث**. أخرجه مسلم (٢٣٨٠).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

أي: إنَّ في التَّذكيرِ بنِعَمِ اللهِ وأيَّامِه لَدَلالاتٍ وعِبَرًا ومَواعِظَ لكُلِّ مَن كان عظيمَ الصَّبرِ على الطَّاعةِ، وعن المعصيةِ، وعلى البلاءِ والضَّرَّاءِ، عظيمَ الشُّكرِ لله على السَّرَّاءِ والنَّعماءِ.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦)﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- قولَ موسى لِقَومِه بني إسرائيلَ: اذكُروا بقُلوبِكم وألسِنتِكم إنعامَ اللهِ عليكم، حين أنجاكم مِن فِرعونَ وقَومِه.

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾.

أي: يُذيقُكم آلُ فِرعونَ عذابًا سيِّئًا شَديدًا.

﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾.

أي: ويُذَبِّحونَ أبناءَكم الذُّكورَ المَولودين.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾.

أي: ويَترُكونَ إناثَكم دونَ قَتلٍ؛ مِن أجلِ جعلِهم خدمًا وأرقَّاء.

﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

أي: وفي عذابِ آلِ فِرعونَ لكم اختبارٌ مِن اللهِ لكم عظيمٌ، وفي إنجائِنا لكم مِنهم نِعمةٌ مِن اللهِ عَظيمةٌ.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧)﴾.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

أي: واذكُروا حين أعلَمَكم ربُّكم: لَئِن شَكَرتُم اللهَ على نِعَمِه بطاعتِه في أمرِه ونَهيِه، ليزيدَنَّكم من النِّعَمِ.

﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

أي: ولئنْ كَفَرتُم نعمةَ اللهِ عليكم فلم تشكُروه عليها بطاعتِه في أمرِه ونهيِه؛ فإنَّ عِقابَه لِمَن كفَرَ به شديدٌ، فيُصيبُكم منه ما يسلُبُ تلك النِّعَمَ، ويُحِلُّ بكم النِّقمَ.

﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨)﴾.

أي: وقال موسى لقَومِه: إن تكفُروا بنِعَمِ اللهِ أنتم وجميعُ مَن في الأرضِ، فإنَّ اللهَ غنيٌّ عن جميعِ خَلقِه، وعن شُكرِهم له، محمودٌ قد اسْتَوْجَب الحمدَ لِذاتِه لكثرةِ إنعامِه، وإنْ لم تَشْكُروه وهو حميدٌ في ذاتِه وأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه.

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما روى عن اللهِ تبارك وتعالى أنَّه قال: ((يا عبادي كلُّكم ضالٌّ إلَّا مَن هَدَيتُه، فاستهدُوني أهْدِكم، يا عبادي كُلُّكم جائِعٌ إلَّا مَن أطعَمتُه، فاستطعِموني أُطعِمْكم، يا عبادي كلُّكم عارٍ إلَّا مَن كسَوتُه، فاسْتَكْسُوني أكْسُكم، يا عبادي إنَّكم تُخطِئونَ باللَّيلِ والنَّهارِ، وأنا أغفِرُ الذُّنوبَ جميعًا، فاستغفِروني أغفِرْ لكم، يا عبادي إنَّكم لن تَبلُغوا ضُرِّي فتضُرُّوني، ولن تبلُغوا نفعي فتَنفَعوني، يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخرِكم، وإنسَكم وجِنَّكم، كانوا على أتقى قلبِ رَجُلٍ واحدٍ منكم؛ ما زاد ذلك في مُلكي شيئًا، يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم، وإنسَكم وجِنَّكم، كانوا على أفجَرِ قَلبِ رجلٍ واحدٍ؛ ما نقص ذلك مِن مُلكي شيئًا، يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم وإنسَكم وجِنَّكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ، فسألوني فأعطيتُ كُلَّ إنسانٍ مَسألتَه، ما نقَصَ ذلك ممَّا عندي إلَّا كما يَنقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدخِلَ البحرَ)). أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

الفوائد التربوية

١- قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ في هذا دليلٌ على مشروعيةِ الوَعظِ المُرَقِّقِ للقُلوبِ، المُقَوِّي لليقينِ.

٢- قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ مَعرِفةُ هذه الأيَّامِ تُوجِبُ للعبدِ استبصارَ العِبَرِ، وبحَسَب مَعرفتِه بها تكونُ عِبرَتُه وعِظَتُه؛ قال الله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

٣- قال الله تعالى لموسَى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ وهي تتناولُ أيَّامَ نِعَمِه وأيَّامَ نِقَمِه؛ ليشكُروا ويَعتَبِروا؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فإنَّ ذِكرَ النِّعَمِ يدعو إلى الشُّكرِ، وذِكْرَ النِّقَمِ يقتضي الصَّبرَ على فِعلِ المأمورِ -وإن كَرِهَتْه النَّفسُ- وعن المحظورِ، وإن أحَبَّتْه النَّفسُ؛ لئلَّا يُصيبَه ما أصاب غيرَه مِن النِّقمةِ.

٤- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إذا اعتبَرَ العبدُ الدِّينَ كُلَّه، رآه يرجِعُ بجُملتِه إلى الصَّبرِ والشُّكرِ.

٥- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ المؤمِنَ يجِبُ ألَّا يخلوَ زَمانه عن أحدِ هذينِ الأمرينِ، فإن جرى الوقتُ على ما يلائِمُ طَبعَه ويوافِقُ إرادتَه، كان مشغولًا بالشُّكرِ، وإن جرى بما لا يلائِمُ طَبعَه، كان مشغولًا بالصَّبرِ.

الفوائد التربوية

٦- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ في صيغةِ المُبالغةِ إشارةٌ إلى أنَّ عادتَه تعالى جَرَت بأنَّه إنما ينصُرُ أولياءَه بعد طولِ الامتحانِ بعظيمِ البلاءِ؛ ليتبيَّنَ الصَّادِقُ مِن الكاذبِ ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤]، ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ [يوسف: ١١٠]، ﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١، ٢]؛ وذلك أنَّه لا شيءَ أشَقُّ على النُّفوسِ مِن مُفارقةِ المألوفِ، لا سيَّما إن كان دِينًا، ولا سيَّما إن كان قد درجَ عليه الأسلافُ، فلا يقومُ بالدُّعاءِ إلى الدِّينِ إلَّا من بلغَ الذِّروةَ في الصَّبرِ.

٧- قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ الآيةُ نَصٌّ في أنَّ الشُّكرَ سبَبُ المزيدِ، فالشكرُ معه المزيدُ أبدًا، فمتَى لم تَرَ حالَك في مزيدٍ، فاسْتقْبِلِ الشُّكرَ.

٨- لا شَكَّ أنَّ النِّعَمَ تستوجِبُ مِنَّا الشُّكرَ؛ لأنَّنا إذا شَكَرْنا اللهَ عزَّ وجَلَّ فقد قال الله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] فبيَّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّه بالشُّكرِ يزيدُ النِّعَم، أمَّا إذا قُوبِلَت بالكُفرِ فإنَّ اللهَ تعالى سيعذِّبُ هؤلاء الذين أنعَمَ الله عليهم، فبَدَّلوا نِعمةَ اللهِ كُفرًا.

المقطع الثالث

الآيات: ٩-١٢

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

معاني الكلمات

مُرِيبٍ	أي: مُوقِعٍ للتُّهمةِ.
فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ	أي: خالِقِهما ومُبدِعِهما ومُبتدِئِهما، وأصلُ (فطر): الشَّقُّ طولًا، ويدلُّ على فتْحِ شيءٍ، وإبرازِه.

تفسير الآيات

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩)﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾.

أي: ألم يأتِكم خَبَرُ الأُمَمِ الذين مَضَوا مِن قَبلِكم؛ قَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمودَ؟

﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾.

أي: وأمَمٌ كثيرةٌ مِن بعدِ قَومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ، لا يعلَمُ عدَدَهم وأخبارَهم إلَّا اللهُ وَحدَه.

﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

أي: جاء كُلَّ أمَّةٍ مِن الأمَمِ السَّابقةِ رَسولُهم الذي أرسَلَه اللهُ إليهم، بالحُجَجِ الواضِحةِ الدَّامغةِ، والمُعجِزاتِ الظَّاهِرةِ الدَّالَّةِ على صِدقِ الرُّسُلِ، وصِحَّةِ دعوتِهم النَّاسَ إلى توحيدِ الله وطاعتِه.

﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾.

أي: فرَدَّ المكَذِّبونَ مِن الأُمَمِ السَّابقةِ أيديَهم إلى أفواهِهم؛ ليَعَضُّوها غيظًا ممَّا جاءت به الرسُلُ مِن توحيدِ اللهِ، الذي فيه تسفيهُ أحلامِهم، وإبطالُ آلهتِهم.

﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾.

أي: وقالوا لرُسُلِهم: إنَّا كَفَرْنا بالذي تزعُمونَ أنَّكم أُرسِلتُم به، مِن الدُّعاءِ إلى توحيدِ اللهِ، وتَركِ الإشراكِ به.

﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.

أي: وإنَّا لفي شَكٍّ يوجِبُ لنا التُّهمةَ والرِّيبةَ مِن حقيقةِ ما جِئتُمونا به؛ فلَسْنا نصَدِّقُكم فيه.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٠)﴾.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾.

أي: قالت الرُّسُلُ لأُمَمِهم: أفي وجودِ اللهِ وإفرادِه بالعبادةِ دُونَ غَيرِه شَكٌّ؟!

﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أي: خالقِ السَّمواتِ والأرضِ، ومُوجِدِهما مِن العدَمِ على غيرِ مِثالٍ سابقٍ.

﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾.

أي: يَدعوكم اللهُ على ألسنةِ رُسُلِه وفي كُتُبِه إلى عبادتِه وَحدَه وطاعتِه؛ لِيستُرَ عليكم بعضَ ذُنوبِكم، ويتجاوزَ عن مؤاخَذتِكم بها، فلا يعاقِبَكم عليها.

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾.

أي: ويؤخِّرَكم في الدُّنيا إلى مُنتهَى أعمارِكم، فلا يُعاجِلكم بالعذابِ.

﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.

أي: قال الكُفَّارُ لرُسُلِهم: ما أنتم إلَّا بشَرٌ مِثلُنا في الصُّورةِ والهيئةِ؛ تأكلونَ ممَّا نأكُلُ، وتشربونَ ممَّا نشرَبُ، ولستُم ملائكةً، فكيف نُطيعُكم؟ وكيف تَفضُلُونَنا بالنبوَّةِ والرِّسالةِ؟! إنَّما تريدونَ بدَعوتِكم هذه أن تَصرِفونا عن عبادةِ ما كان يعبُدُ آباؤُنا مِن الأوثانِ والأصنامِ.

﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾.

أي: فأْتُونا بمُعجزةٍ ظاهرةٍ، وحُجَّةٍ دامغةٍ تُبَيِّنُ لنا صِحَّةَ ما تدعونَنا إليه، فنعلَمَ أنَّكم على الحَقِّ.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)﴾.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾.

أي: قالت الرُّسُلُ لأولئك الكفَّارِ مِن أقوامِهم: صدَقْتُم، ما نحنُ إلَّا بشَرٌ مِن بني آدَمَ، مِثلُكم في البشَريَّة.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

أي: ولكنَّ اللهَ يتفَضَّلُ على من يشاءُ مِن عبادِه بالرِّسالةِ والنُّبُوَّة، ويُفَضِّلُهم على كثيرٍ مِن خَلْقِه.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

أي: ولا نقدِرُ أن نأتيَكم بحُجَّةٍ وآيةٍ كما تقتَرِحونَ، إلَّا بمشيئةِ اللهِ وأمرِه.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

أي: وعلى اللهِ وَحدَه فلْيعتمِدِ المؤمنونَ في جَلبِ مَصالِحِهم، ودفْعِ مَضارِّهم، ولْيَثِقوا به في تيسيرِ جميعِ أمورِهم.

﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)﴾.

﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾.

أي: قالت الرُّسُلُ لأُمَمِهم: وأيُّ عذرٍ لنا في ألَّا نعتَمِدَ على اللهِ ونَثِقَ به، والحالُ أنَّه قد فعل بنا ما يوجِبُ توكُّلَنا عليه؛ فقد أرشَدَنا ووفَّقَنا لسُلوكِ الطَّريقِ المُوصِل إلى رَحمتِه، المُنَجِّي مِن سَخَطِه ونِقمَتِه؟

﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾.

أي: واللهِ، لنَصبِرَنَّ على ما نَلقَى منكم مِن الأذَى بسبَبِ استمرارِنا في الدَّعوةِ إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه لا شريكَ له.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

أي: وعلى اللهِ وَحدَه فلْيَعتمِدِ المتوَكِّلونَ الواثِقونَ باللهِ، ولْيَثبُتوا على توكُّلِهم على اللهِ عزَّ وجلَّ.

الفوائد التربوية

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وجوبُ التوكُّلِ على اللهِ وحدَه، وإفرادُه بالتوكُّلِ يُؤخَذُ مِن تقديمِ المعمولِ على عامِلِه؛ لأنَّ تقديمَ ما حقُّه التأخيرُ يُفيدُ الحصرَ، وهذه قاعِدةٌ، فلا يجوزُ التوكُّلُ إلَّا على اللهِ، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أنَّ التوكُّلَ مِن مقتَضياتِ الإيمانِ؛ لأنَّه عَلَّقَ الحُكمَ على وصفٍ -وهو الإيمانُ- فدلَّ ذلك على أنَّه كلَّما قَوِيَ الإيمانُ قَوِيَ التوكُّلُ على اللهِ، وكلَّما ضَعُفَ الإيمانُ ضَعُفَ التوكُّلُ على اللهِ، فالتوكلُ مِن العباداتِ الكِبارِ التي يحِبُّها اللهُ ويرضاها؛ لِتوقُّفِ سائِرِ العباداتِ عليه.

٣- قالت الرُّسُلُ لِقَومِهم: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ فعَجِبوا مِن تَركِهم التوكُّلَ على اللهِ، وهو هَداهم، وأقرُّوا أنَّ ذلك لا يكونُ أبدًا، وهذا دليلٌ على أنَّ الهِدايةَ والتوكُّلَ مُتلازِمانِ؛ فصاحِبُ الحَقِّ -لعِلمِه بالحَقِّ، ولِيَقينِه بأنَّ اللهَ وليُّ الحَقِّ وناصِرُه- مُضطَرٌّ إلى توكُّلِه على اللهِ، لا يجِدُ بُدًّا مِن توكُّلِه؛ فإنَّ التوكُّلَ يجمَعُ أصلينِ: علمَ القَلبِ وعَمَلَه؛ أمَّا عِلمُه: فيقينُه بكفايةِ وَكيلِه، وكمالِ قيامِه بما وكَلَه إليه، وأنَّ غيرَه لا يقومُ مَقامَه في ذلك. وأمَّا عمَلُه: فسُكونُه إلى وَكيلِه، وطمأنينتُه إليه، وتفويضُه وتسليمُه أمْرَه إليه، وأنَّ غيرَه لا يقومُ مقامَه في ذلك، ورضاه بتصَرُّفِه له فوقَ رضاه بتصَرُّفِه هو لنفسِه، فبهذين الأصلينِ يتحقَّقُ التوكُّلُ، وهما جِماعُه.

المقطع الرابع

الآيات: ١٣-١٨

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾

معاني الكلمات

مِلَّتِنَا	أي: دينِنا، وطريقتِنا.
وَاسْتَفْتَحُوا	أي: استَنصَروا وسألوا الفتحَ من اللهِ.
مِنْ وَرَائِهِ	أي: مِن أمامِه.
صَدِيدٍ	قيحٍ ودَمٍ.
يَتَجَرَّعُهُ	أي: يتحَسَّاه مَرَّةً بعدَ مَرَّةٍ، لا مَرَّةً واحدةً؛ لِمَرارته وحرارته.
يُسِيغُهُ	أي: يُجيزُه ويَبتَلِعُه.
عَاصِفٍ	أي: شديدِ هُبوبِ الرِّيحِ.

تفسير الآيات

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣)﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾.

أي: وقال الذين كَفَروا باللهِ لرسلِ الله الذين يَدْعونهم للتوحيدِ: واللهِ، لنطرُدَنَّكم من بلادِنا إلا أن تعودوا إلى دينِنا.

﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾.

أي: فأوحَى اللهُ إلى رسُلِه قائلًا لهم: لنُهلِكَنَّ المُشرِكينَ الذين ظَلَموا أنفُسَهم بوَضعِهم العبادةَ في غَيرِ مَوضِعِها، وصَرفِها لِمَن لا يستحِقُّها.

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤)﴾.

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾.

أي: ولننصُرَنَّكم وأتباعَكم المؤمنينَ على الكفَّارِ، ونجعَلُكم تسكُنونَ أرضَهم مِن بعدِ إهلاكِنا لهم.

﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

أي: ذلك النَّصرُ في الدُّنيا على الكُفَّارِ، والتَّمكينُ في الأرضِ، يتحَقَّقُ لِمَن خاف مَقامَه بينَ يدَيَّ يومَ القيامةِ، وخاف مِن وعيدي وعذابي، فاتَّقاني بطاعتي، وتجنَّبِ مَعصِيتي.

﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥)﴾.

﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾.

أي: طلبَت الرسُلُ مِن اللهِ النَّصرَ على أقوامِهم وإهلاكَهم.

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

أي: وخَسِرَ وهلَك كُلُّ متكبِّرٍ على الحَقِّ، مُعانِدٍ له.

﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (١٦)﴾.

﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾.

أي: مِن أمامِ كُلِّ جبَّارٍ عَنيدٍ نارُ جَهنَّمَ تنتَظِرُه، فهو صائِرٌ إليها في الآخرةِ.

﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾.

أي: ويُسقَى في جهنَّمَ مِن القَيحِ والدَّمِ الذي يسيلُ مِن أبدانِ أهلِ النَّارِ.

﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧)﴾.

﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾.

أي: يتحسَّى ذلك الجبَّارُ العنيدُ الصَّديدَ، ويشرَبُه قَهرًا -مِن شِدَّةِ عَطَشِه- على جَرعاتٍ، ولا يَكادُ يَبتَلِعُه؛ مِن شِدَّةِ خُبثِه وكراهتِه.

﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

أي: ويأتيه الموتُ وآلامُه وشِدَّتُه مِن كُلِّ مَوضِعٍ في جسَدِه، ومِن كُلِّ الجِهاتِ، وهو مع ذلك لا يموتُ فيستريحَ مِن العذابِ.

﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾.

أي: ومِن أمامِه عذابٌ آخَرُ قَويٌّ شديدٌ ينتظرُه غيرُ ما هو فيه مِن العَذابِ.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨)﴾.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾.

أي: مثَلُ أعمالِ الذين كفَروا برَبِّهم كرمادٍ طيَّرَتْه وفرَّقَتْه الرِّيحُ القَويَّةُ في يومٍ يشتَدُّ فيه هُبوبُها، فلم يبقَ مِن الرَّمادِ شَيءٌ، فكذلك أعمالُ البِرِّ والخيرِ التي يعمَلُها الكافِرونَ؛ يُبطِلُها الكُفرُ، ويُذهِبُ ثَوابَها، كما تُذهِبُ تلك الريحُ الشَّديدةُ الرَّمادَ.

﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾.

أي: لا يجِدُ الكُفَّارُ في الآخرةِ أيَّ ثوابٍ لأعمالِ البِرِّ التي عَمِلوها في الدُّنيا، ولا يَرَونَ لها أيَّ منفعةٍ، مثلما لا يُقدَرُ على جَمعِ الرَّمادِ في اليومِ العاصِفِ.

﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾.

أي: أعمالُهم التي بطَلَت وفَقَدوا ثوابَها لم تكُنْ على هُدًى واستقامةٍ، فكانوا في خطأٍ وانحرافٍ بعيدٍ عن طريقِ الصَّوابِ، لا يُمكِنُ معه تدارُكُ تلك الخَسارةِ الكبيرةِ.

الفوائد التربوية

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ يدُلُّ على أنَّ مَن توكَّلَ على ربِّه في دَفعِ عَدُوِّه، كفاه اللهُ أمرَ عَدُوِّه.

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾، وقولُه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] فوعَدَ اللهُ بنصرِ الدُّنيا وبثوابِ الآخرةِ لأهلِ الخَوفِ، وذلك إنَّما يكونُ لأنَّهم أدَّوا الواجِبَ؛ فدلَّ على أنَّ الخوفَ يستلزِمُ فِعْلَ الواجِبِ، ولهذا يُقال للفاجِرِ: لا يخافُ اللهَ.

٣- في قَولِه تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ دَلالةٌ على أنَّ مَن عَمِلَ لغيرِ اللهِ رجاءَ أن يَنتفعَ بما عَمِلَ له؛ كانت صفقتُه خاسرةً.

المقطع الخامس

الآيات: ١٩-٢١

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾

معاني الكلمات

وَبَرَزُوا	أي: ظَهَروا وخَرَجوا مِن قُبورِهم.
أَجَزِعْنَا	الجزعُ: حزنٌ يصرِفُ الإنسانَ عمَّا هو بصددِه، ويقطعُه عنه.
مَحِيصٍ	أي: مَعدِلٍ ومَهرَبٍ.

تفسير الآيات

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩)﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾.

أي: ألم تَرَ أنَّ الله خلقَ السَّمواتِ والأرضَ وَحدَه بغَيرِ ظَهيرٍ ولا مُعينٍ، لأمرٍ عظيمٍ؛ ليعبدَه الخلقُ، ويعرِفوا ما له من صِفاتِ الكَمالِ، وأنَّه القادِرُ على إعادةِ الخَلقِ يومَ القيامةِ، فهو سبحانَه لم يخلُقْهنَّ عَبَثًا؟

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

أي: إنَّ القادِرَ الذي تفرَّدَ بخَلقِ السَّمواتِ والأرضِ إن شاء أن يُفنِيَكم -أيُّها النَّاسُ- إن عَصَيتُموه، أفناكم، ويأتِ بقَومٍ غَيرِكم أفضَلَ وأطوَعَ لله منكم.

﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠)﴾.

أي: وما إذهابُكم -أيُّها النَّاسُ- والإتيانُ بخَلقٍ آخَرَ مَكانَكم، بمُمتَنِعٍ على اللهِ ولا مُتعَذِّرٍ، بل هو سَهلٌ يَسيرٌ عليه سُبحانَه.

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١)﴾.

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

أي: وظهَروا جميعًا مِن قُبورِهم لله وَحدَه يومَ القيامةِ، مجتمعينَ في أرضٍ مُستَوِيةٍ لا يخفَى فيها أحدٌ منهم.

﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾.

أي: فقال الأتباعُ لقادتِهم وسادتِهم الذين كانوا يستكبِرونَ في الدُّنيا عن اتِّباعِ الحَقِّ: إنَّا كنَّا لكم في الدُّنيا أتباعًا نُطيعُكم ونقَلِّدُكم، فأضلَلْتُمونا.

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

أي: فهل أنتم دافِعونَ عنَّا اليومَ شَيئًا -ولو قليلًا- مِن عذابِ اللهِ؟

﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾.

أي: قال القادةُ المَتبوعونَ لأتباعِهم: لو هَدانا اللهُ إلى الحَقِّ، لهدَيناكم إليه، فلمَّا أضلَّنا أضلَلْناكم، فحقَّ علينا وعليكم عذابُ اللهِ.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾.

أي: سواءٌ علينا أجَزِعْنا مِن العذابِ أم صَبَرْنا عليه، ما لنا في كِلا الحالَين مِن مَهرَبٍ ولا ملجأٍ نَفِرُّ إليه مِن عذابِ اللهِ.

الفوائد التربوية

قَولُ الله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ جيءَ في هذه الآيةِ بوَصفِ حالِ الفِرَقِ يومَ القيامةِ، ومُجادلةِ أهلِ الضَّلالةِ مع قادتِهم، مع كونِ المؤمنينَ في شُغُلٍ عن ذلك بنُزُلِ الكرامةِ، والغرَضُ من ذلك تنبيهُ النَّاسِ إلى تدارُكِ شَأنِهم قبل الفَواتِ، فالمقصودُ: التحذيرُ ممَّا يُفضي إلى سُوءِ المَصيرِ.

المقطع السادس

الآيات: ٢٢-٢٣

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾﴾

معاني الكلمات

بِمُصْرِخِكُمْ	أي: بمُغيثِكم ومُنقِذِكم.

تفسير الآيات

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)﴾.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾.

أي: وقال إبليسُ -وهو أوَّلُ المُستكبرينَ المتبوعينَ في الضَّلالِ- لأتباعِه لَمَّا أدخَلَ اللهُ أهلَ الجنَّةِ الجنَّةَ، وأهلَ النَّارِ النَّارَ: إنَّ اللهَ وعَدَكم على ألسِنةِ رُسُلِه وعدًا صادِقًا متحَقِّقًا لا

يُخلَفُ بوقوعِ البَعثِ، وإثابةِ المُطيعِ بالجنَّةِ، والعاصي بالنَّارِ، ووعَدكم أنَّ في اتِّبَاعِ هؤلاء الرسلِ النَّجاةَ وَالسَّلامَةَ، فوفَى بوَعدِه، ووَعَدتُكم أنْ لا بعثَ، ولا جَنَّةَ ولا نارَ، ولَا ثَوابَ ولَا عِقابَ، ووعدتُكم النُّصرةَ، فأخلفْتُ وعدي لكم، وكذَبْتُ عليكم.

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾.

أي: قال إبليسُ لأهلِ النَّارِ: وما أظهرتُ لكم أيَّ حجَّةٍ تدُلُّ على صِدقي فيما وعدتُكم به، ولكِنْ دعوتُكم إلى الكُفرِ باللهِ والإشراكِ به ومَعصيتِه، فأطعتُموني واتَّبعتُموني بلا بُرهانٍ.

﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

أي: فلا تَلوموني اليومَ على طاعتِكم واتِّباعِكم لي بلا حُجَّةٍ، ولوموا أنفُسَكم على ذلك؛ فأنتم السَّبَبُ في دخُولِكم النَّارَ؛ لأنَّكم مُؤاخَذونَ بكَسبِكم، ولكم قُدرةٌ واختيارٌ، فاختَرتُم الشَّرَّ على الخيرِ.

﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾.

أي: ما أنا بمُغيثِكم ومُنقِذِكم من النَّارِ، وما أنتم بمُغيثينَ ومُنقذينَ لي من النَّارِ؛ فكلٌّ مِنَّا له قِسْطُه من العذابِ.

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾.

أي: إنِّي جَحَدْتُ وتبرَّأتُ مِن جَعْلِكم لي شَريكًا لله في العبادةِ والطَّاعةِ مِن قَبلُ في الدُّنيا.

﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الكافرينَ -الذين ظلَموا أنفُسَهم بوَضعِهم العِبادةَ والطَّاعةَ في غيرِ مَوضِعِها- لهم عَذابٌ مُوجِعٌ.

﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣)﴾.

﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

أي: وأُدخِلَ الذين آمنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحاتِ، فأطاعوا اللهَ تعالى واجتَنَبوا مَعصِيتَه؛ بساتينَ تجري الأنهارُ سارِحةً مِن تحتِ ما علا منها، كالغُرَفِ والمباني والأشجارِ وغيرِها.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾.

أي: ماكثينَ في الجنَّةِ بأمرِ رَبِّهم.

﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾.

أي: تحيةُ بعضِهم لبعضٍ، وتحيةُ اللهِ لهم، وتحيةُ الملائكةِ إيَّاهم: سلامٌ.

الفوائد التربوية

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ...﴾ حِكايةُ هذه المُحاورةِ لِتَنبيهِ السَّامعينَ على النَّظَرِ في العواقِبِ، والاستعدادِ لذلك اليومِ قبل ألَّا يكونَ إلَّا النَّدمُ وقَرعُ السِّنِّ وعَضُّ اليَدِ. ولإثارةِ بُغضِ الشَّيطانِ في نُفوسِ أهلِ الكُفرِ؛ ليأخُذوا حِذرَهم بدِفاعِ وِسْواسِه؛ لأنَّ هذا الخِطابَ الذي يُخاطِبُهم به الشَّيطانُ مَليءٌ بإضمارِ الشَّرِّ لهم فيما وعَدَهم في الدُّنيا ممَّا شَأنُه أن يستفِزَّ غَضَبَهم مِن كَيدِه لهم وسُخريتِه بهم، فيُورِثَهم ذلك كراهيةً له وسُوءَ ظَنِّهم بما يتوقَّعونَ إتيانَه إليهم مِن قِبَلِه، وذلك أصلٌ عَظيمٌ في المَوعِظةِ والتَّربيةِ.

المقطع السابع

الآيات: ٢٤-٢٧

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾

معاني الكلمات

اجْتُثَّتْ	أي: استُؤصِلَت وقُطِعَت.
قَرَارٍ	أي: أصلٍ وثَباتٍ.

تفسير الآيات

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤)﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾.

أي: ألم تعلَمْ -يا محمَّدُ- كيف مثَّلَ اللهُ مَثَلًا، وشبَّه شَبَهًا كلمةً طَيِّبةً -وهي كلمةُ التَّوحيدِ، وشهادة أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ- كشَجَرةٍ طَيِّبةِ الثَّمرةِ، كالنَّخلةِ؟

﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾.

أي: جُذورُ هذه الشَّجرةِ الطَّيِّبةِ ثابتةٌ في الأرضِ، وأغصانُها مرتفعةٌ نحوَ السَّماءِ، فكذلك كلمةُ التَّوحيدِ؛ أصلُها ثابتٌ وراسِخٌ في قلبِ المؤمِنِ، وفرُوعُها مِن الأعمالِ الصَّالحةِ صاعِدةٌ إلى السَّماءِ، مَرفوعةٌ إلى الرَّبِّ سُبحانَه.

﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥)﴾.

﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾.

أي: تُخرِجُ هذه الشَّجرةُ الطَّيِّبةُ ثَمَرَها كامِلًا كثيرًا طَيِّبًا في كلِّ وقتٍ وساعةٍ مِن ليلٍ ونهارٍ، وصيفٍ وشِتاءٍ، بمَشيئةِ خالِقِها وأمْرِه وتيسيرِه، وكذلك كَلِمةُ التَّوحيدِ؛ لا تزالُ تُثمِرُ الأعمالَ الصَّالحةَ للمُؤمِنِ في كُلِّ وَقتٍ، ولا يزالُ يُرفَعُ له عمَلٌ صالِحٌ آناءَ اللَّيلِ وأطرافَ النَّهارِ، في كلِّ حينٍ.

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((كنَّا عندَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: أخبِروني بشَجَرةٍ تُشبِهُ أو كالرجُلِ المُسلِمِ لا يتحاتُّ وَرَقُها، ولا ولا ولا. تُؤتي أُكُلَها كُلَّ حينٍ؟ قال ابنُ عُمَرَ: فوقعَ في نفسي أنَّها النَّخلةُ، ورأيتُ أبا بكرٍ وعُمَرَ لا يتكلَّمانِ، فكَرِهتُ أن أتكلَّمَ، فلمَّا لم يقولوا شيئًا، قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هي النَّخلةُ. فلمَّا قُمْنا قلتُ لِعُمَرَ: يا أبَتاه، واللهِ لقد كان وقَعَ في نفسي أنَّها النَّخلةُ، فقال: ما منَعَك أن تكلَّمَ؟ قال: لم أرَكم تَكلَّمونَ، فكَرِهتُ أن أتكلَّمَ أو أقولَ شَيئًا، قال عمَرُ: لَأنْ تكونَ قُلتَها أحَبُّ إليَّ مِن كذا وكذا)).

أخرجه مسلم (٢٨١١).

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

أي: ويمثِّلُ اللهُ الأمثالَ للنَّاسِ، ويُشبِّهُ لهم الأشْباهَ، ويُبيِّنُها لهم؛ ليتذكَّروا حُجَّةَ الله عليهم، ويَفهَموا ما أراد اللهُ منهم، فيتَّعِظوا، ويفعَلوا ما أمَرَهم به، ويجتَنِبوا ما نهاهم عنه.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦)﴾.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾.

أي: ومَثَلُ كَلِمةٍ خَبيثةٍ -وهي كَلِمةُ الكُفرِ واعتقادُ الشِّركِ- كشَجَرةٍ كريهةِ الطَّعمِ، مِثْل

الحَنظلِ، فلا أصلَ لها ثابتٌ في الأرضِ، ولا ارتفاعَ لفُروعِها في السَّماءِ، وليس لها ثمرةٌ ولا مَنفعةٌ، وكذلك كُفرُ الكافِرِ؛ فلا يعمَلُ مع كُفْرِه خيرًا ولا يَقولُه، ولا يجعَلُ اللهُ فيه بركةً ولا مَنفعةً، ولا يصعَدُ عَمَلُه ولا قَولُه إلى السَّماءِ.

﴿اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾.

أي: استُؤصِلَت هذه الشَّجرةُ الخبيثةُ، واقتُلِعَت مِن أصلِها؛ فليس لها عُروقٌ وجُذورٌ ثابتةٌ في الأرضِ تُمسِكُها، وكذلك الكُفرُ؛ لا أصلَ له ولا فَرعَ، ولا يَثبُتُ ثُبوتًا نافِعًا في قَلبِ صاحِبِه، ولا يصعَدُ للكافِرِ عمَلٌ، ولا يُتقبَّلُ منه شَيءٌ.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)﴾.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

أي: يثبِّتُ اللهُ المُؤمِنينَ بالقَولِ الصَّادقِ الحَقِّ، الذي ثبَتَ في قُلوبِهم، وتمكَّنَ فيها، واطمأنَّتْ إليه نفوسُهم -وهو شَهادةُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحمَّدًا رَسولُ اللهِ- فيُثَبِّتُهم اللهُ في حياتِهم الدُّنيا على إيمانِهم باللهِ تعالى وبرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويُسلِّمُهم من الشَّهَواتِ والشُّبُهاتِ، ويُثَبِّتُهم أيضًا في قُبورِهم عندَ سؤالِ الملكينِ.

عن البَراءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((المُسلِمُ إذا سُئِلَ في القبرِ يشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ. فذلك قولُه: يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)). أخرجه البخاري (٤٤٢٢).

وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((شَهِدتُ مع رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جِنازةً، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أيُّها النَّاسُ، إنَّ هذه الأمَّةَ تُبتَلَى في قُبورِها، فإذا الإنسانُ دُفِنَ فتفرَّقَ عنه أصحابُه، جاءه ملَكٌ في يَدِه مِطراقٌ فأقعَدَه، قال: ما تقولُ في هذا الرَّجُلِ؟ فإن كان مؤمِنًا قال: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ مُحمَّدًا عبدُه ورسولُه، فيقولُ: صَدَقتَ، ثمَّ يُفتَحُ له بابٌ إلى النَّارِ، فيقولُ: هذا كان مَنزِلَك لو كفَرْتَ برَبِّك، فأمَّا إذ آمنتَ فهذا مَنزِلُك، فيُفتَحُ له بابٌ إلى الجنَّةِ، فيريدُ أن ينهَضَ إليه، فيقولُ له: اسكُنْ، ويُفسَحُ له في قَبرِه. وإن كان كافِرًا أو مُنافِقًا يقولُ له: ما تقولُ في هذا الرَّجُلِ؟ فيقولُ: لا أدري، سَمِعتُ

النَّاسَ يقولونَ شَيئًا! فيقولُ: لا دَرَيتَ، ولا تَلَيتَ، ولا اهتَدَيتَ، ثمَّ يُفتَحُ له بابٌ إلى الجنَّةِ فيقولُ: هذا مَنزِلُك لو آمنْتَ برَبِّك، فأمَّا إذ كفَرْتَ به فإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ أبدَلَك به هذا، ويُفتَحُ له بابٌ إلى النَّارِ، ثمَّ يَقمَعُه قَمعةً بالمِطراقِ يَسمَعُها خَلقُ اللهِ كُلُّهم غيرَ الثَّقَلينِ. فقال بعضُ القَومِ: يا رسولَ اللهِ، ما أحدٌ يقومُ عليه ملَكٌ في يَدِه مِطراقٌ إلَّا هِيلَ عند ذلك! فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾)). أخرجه أحمد (١٠٦١٧) صحيح.

﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾.

أي: ويَخذُلُ اللهُ الكافرينَ والمُنافِقينَ -بسبَبِ ظُلمِهم أنفُسَهم- فيَجعَلُهم في حَيرةٍ وعَمايةٍ، فلا يُوَفِّقُهم إلى الحَقِّ في الحياةِ الدُّنيا، ولا يوَفِّقُهم في قُبورِهم إلى القَولِ الصَّائِبِ حين يُسألُونَ عن الإيمانِ باللهِ عزَّ وجلَّ وبرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾.

أي: ويفعَلُ اللهُ ما يشاءُ مِن هدايةِ المؤمنينَ وتَثبيتِهم، وإضلالِ الظَّالمينَ وخِذلانِهم.

الفوائد التربوية

١- قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ وكذلك شَجرةُ الإيمانِ؛ أصلُها ثابتٌ في قَلبِ المُؤمِنِ؛ عِلمًا واعتقادًا، وفَرعُها -مِن الكَلِمِ الطَّيِّبِ، والعمَلِ الصَّالِحِ، والأخلاقِ المَرضِيَّةِ، والآدابِ الحَسَنةِ- في السَّماءِ، دائِمًا يصعَدُ إلى الله منه مِن الأعمالِ والأقوالِ التي تُخرِجُها شَجَرةُ الإيمانِ ما ينتَفِعُ به المؤمِنُ، ويَنفَعُ غيرَه.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ دليلٌ على أنَّ كَلِمةَ الإخلاصِ جامِعةٌ للخيرِ، نامِيَةٌ للحَسَناتِ، جالِبةٌ على قائِلِها -كُلَّمَا لفَظَ بها- ثوابًا مُجَرَّدًا، مُثمِرةٌ له كلَّ ما يُقِرُّ اللهُ به عينَه في مَعَادِه إذا وَرَدَ عليه؛ وأنَّ كَلِمةَ الكفرِ غيرُ مُثمِرةٍ لقائِلِها خَيرًا، بل حَاطَّةٌ عنه خَيرًا -إنْ كان له- تاركةٌ قائلَها مُفلِسًا، لا تَنْمي له شَيئًا يُقِرُّ اللهُ به عينَه إذا وَرَدَ عليه.

الفوائد التربوية

٣- قال الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ كذلك كَلِمةُ الكُفرِ والمعاصي؛ ليس لها ثُبوتٌ نافِعٌ في القَلبِ، ولا تُثمِرُ إلَّا كُلَّ قَولٍ خَبيثٍ، وعَمَلٍ خَبيثٍ يَستضِرُّ به صاحِبُه، ولا ينتفِعُ، فلا يصعَدُ إلى اللهِ منه عمَلٌ صالِحٌ، ولا ينفَعُ نفسَه، ولا ينتَفِعُ به غيرُه.

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ فيه إرشادٌ إلى الإقبالِ عليه تعالى، وإلقاءِ أزِمَّةِ الافتقارِ إليه.

٥- تحتَ قَولِه تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ كَنزٌ عَظيمٌ مَن وُفِّقَ لِمَظِنَّتِه، وأحسَنَ استخراجَه واقتناءَه، وأنفَقَ منه؛ فقد غَنِمَ، ومَن حُرِمَه فقد حُرِم؛ وذلك أنَّ العبدَ لا يستغني عن تثبيتِ اللهِ له طَرفةَ عَينٍ، فإنْ لم يثَبِّتْه وإلَّا زالت سَماءُ إيمانِه وأرضُه عن مكانِهما، وقد قال تعالى لأكرَمِ خَلقِه عليه؛ عبدِه ورَسولِه: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]، وقال تعالى لأكرَمِ خَلقِه: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢]، وقال تعالى لرَسولِه: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]، فالخَلقُ كُلُّهم قِسمانِ: مُوفَّقٌ بالتَّثبيتِ، ومَخذولٌ بتَركِ التَّثبيتِ، ومادةُ التَّثبيتِ أصلُه ومَنشؤُه من القَولِ الثَّابتِ، وفِعلِ ما أُمِرَ به العبدُ، فبِهما يُثَبِّتُ اللهُ عَبدَه، فكُلُّ من كان أثبَتَ قَولًا وأحسَنَ فِعلًا، كان أعظمَ تَثبيتًا؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦]، فأثبَتُ النَّاسِ قلبًا أثبَتُهم قولًا، والقولُ الثَّابتُ هو القولُ الحَقُّ والصِّدقُ، وهو ضِدُّ القَولِ

الفوائد التربوية

الباطلِ الكَذِبِ؛ فالقولُ نوعان: ثابتٌ له حقيقةٌ، وباطِلٌ لا حقيقةَ له، وأثبَتُ القَولِ كَلِمةُ التوحيدِ ولوازِمُها؛ فهي أعظَمُ ما يثَبِّتُ اللهُ بها عبدَه في الدُّنيا والآخرةِ؛ ولهذا ترى الصَّادِقَ من أثبَتِ النَّاسِ، وأشجَعِهم قَلبًا، والكاذِبَ مِن أمهَنِ النَّاسِ وأجبَنِهم، وأكثَرِهم تلوُّنًا، وأقلِّهم ثباتًا.

المقطع الثامن

الآيات: ٢٨-٣١

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾﴾

معاني الكلمات

الْبَوَارِ	أي: الهَلاكِ.
خِلَالٌ	أي: مُخالَّةٌ ومُصادَقةٌ.

تفسير الآيات

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨)﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا﴾.

أي: ألم تنظُرْ -يا محمَّدُ- إلى كفَّارِ قُرَيشٍ، الذين غَيَّروا نِعمةَ اللهِ عليهم ببَعثتِك رسولًا إليهم مِن اللهِ، فكَفَروا باللهِ وكَذَّبوك، فلم يُؤمِنوا برِسالتِك، ويَشكُروا اللهَ عليها؟!

﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾.

أي: وأنزَلوا قَومَهم -الذين اتَّبَعوهم مِن قُرَيشٍ- دارَ الهَلاكِ.

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩)﴾.

أي: ودارُ الهَلاكِ هي جهنَّمُ يَدخُلونَها، ويُحيطُ بهم حَرُّها مِن جميعِ جَوانبِهم، وبِئسَ المُستقَرُّ جهنَّمُ.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)﴾.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾.

أي: وجعَل أولئك الكُفَّارُ لله نُظراءَ وشُرَكاءَ، يعبُدونَهم معه؛ كي يُضِلُّوا الناسَ عن دينِ اللهِ الحَقِّ، وإخلاصِ العِبادةِ له وَحدَه.

﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾.

أي: قُلْ لهم -يا محمَّدُ-: استمتِعوا في حياتِكم الدُّنيا الفانيةِ؛ فإنَّ مَرجِعَكم في الآخرةِ إلى النَّارِ.

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١)﴾.

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لعبادي المُؤمِنينَ يُقيموا الصَّلَواتِ الخَمسَ المَفروضةَ عليهم، بحُدودِها في أوقاتِها.

﴿وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

أي: ويُنفِقوا ممَّا رَزَقناهم مِن فَضلِنا، فيُؤدُّوا ما أوجبْتُ عليهم مِن الحقوقِ سرًّا وإعلانًا.

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾.

أي: مِن قَبلِ أن يأتيَ يومُ القيامةِ الذي لا يَقدِرونَ فيه على ذلك، ولا سبيلَ إلى استدراكِ ما فات، لا بمُعاوَضةِ بَيعٍ وشراءٍ، ولا بهِبَةِ خَليلٍ وصَديقٍ؛ فكُلُّ امرئٍ له شأنٌ يُغنِيه.

الفوائد التربوية

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ تحذيرٌ مِن كُفْرانِ النِّعمةِ، وصَرفِها فيما لا يُرضي اللهَ.

٢- قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ الإنسانُ بعد الفراغِ من الإيمانِ، لا قُدرةَ له على التصَرُّفِ في شَيءٍ إلَّا في نفسِه أو في مالِه؛ أمَّا النَّفسُ فيجِبُ شَغلُها بخِدمةِ المعبودِ في الصَّلاةِ، وأمَّا المالُ فيجِبُ صَرفُه إلى البَذلِ في طاعةِ اللهِ تعالى، فهذه الثَّلاثةُ هي الطَّاعاتُ المُعتبَرةُ، وهي الإيمانُ والصَّلاةُ والزَّكاةُ.

٣- قولُ الله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾، أي: لا ينفَعُ فيه شَيءٌ، ولا سبيلَ إلى استدراكِ ما فات، فلْيُقَدِّمِ العبدُ لنَفسِه، ولْيَنظُرْ ما قدَّمَه لغَدٍ، ولْيتفقَّدْ أعمالَه، ويُحاسِبْ نَفسَه قبلَ الحِسابِ الأكبر.

المقطع التاسع

الآيات: ٣٢-٣٤

﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

معاني الكلمات

دَائِبَيْنِ	دائِمَينِ، لا يَفتُرانِ.
تُحْصُوهَا	أي: تحصرُوها، وتضبِطوا عدَّها.

تفسير الآيات

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢)﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

أي: اللهُ المُستحِقُّ للعبادةِ وَحدَه هو الذي أنشأ السَّمواتِ والأرضَ مِن العدَمِ، وأبدعَهما على غيرِ مثالٍ سابقٍ.

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾.

أي: وأنزَل مِن السَّحابِ مَطَرًا، فأخرجَ به مِن الثَّمَراتِ المُتَنوِّعةِ رِزقًا لكم تعيشونَ به.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾.

أي: وذلَّلَ لكم السُّفُنَ لتجريَ بكم في البحرِ بإذنِه، فهو الذي يسَّرَ لكم صُنعَها، وأقدَرَكم عليها، وجعَلَها طافيةً على البَحرِ بتَيسيرِه، وحَفِظَها على تيَّارِ الماءِ لتحمِلَكم، مع كَفِّ العواصِفِ عنها وإعانتِها بالرِّيحِ الطَّيِّبةِ، فتركبونَها لتنتَقِلوا عَبْرَها من مكانٍ إلى آخرَ، وتَحمِلوا فيها أمتِعتَكم مِن بلدٍ إلى بلدٍ.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾.

أي: وذلَّلَ لكم الأنهارَ لتشربُوا مِن مياهِها، وتَسقُوا بها زُروعَكم وأنعامَكم، وذلَّلَها لكم بالرُّكوبِ عليها، والإجراءِ لها إلى حيثُ تُريدونَ.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣)﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾.

أي: وذلَّلَ لكم الشَّمسَ والقمَرَ يَدأَبانِ في سَيرِهما، فيتعاقَبانِ عليكم بلا انقطاعٍ؛ لتَحقيقِ مَصالِحِكم، كحِسابِ أزمِنَتِكم، وضَبطِ أوقاتِكم، ونفعِ أبدانِكم، وحيواناتِكم، وزُروعِكم، وثمارِكم، وغيرِ ذلك.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾.

أي: وذلَّل اللهُ لكم اللَّيلَ والنَّهارَ يتعاقبانِ عليكم؛ فجعل الليلَ لِتَسكُنوا فيه؛ راحةً لأبدانِكم، وجعل النَّهارَ لِتَبتَغوا فيه مِن فَضلِه.

﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾.

﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾.

أي: وأعطاكم اللهُ -أيُّها النَّاسُ- مِن كُلِّ ما رَغِبتُم إليه أن يَرزُقَكم إيَّاه، وهيَّأَ لكم كلَّ ما تحتاجونَ إليه، ممَّا تَسْألونَه إيَّاه، سواءً بلسانِ حالِكم أو مقالِكم.

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾.

أي: وإن تعُدُّوا -أيُّها النَّاسُ- نِعَمَ اللهِ عليكم، لا تُطيقوا إحصاءَ عَدَدِها، والقيامَ بحَصرِها؛ لكَثرتِها، فضلًا عن القيامِ بشُكرِها، فلِمَ تُبَدِّلونَ نِعمةَ اللهِ كُفرًا؟! وهلَّا استعَنتُم بها على طاعتِه؟

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

أي: إنَّ الإنسانَ لعَظيمُ الظُّلمِ لنَفسِه، بوضعِه العبادةَ في غيرِ مَوضِعِها، وشُكرِه غيرَ مَن أنعَمَ عليه، وتجَرُّئِه على عصيانِ ربِّه، شديدُ الجُحودِ لنِعَمِ اللهِ عليه، فلا يشكُرُه عليها، ولا يقومُ بحقِّه سُبحانَه.

الفوائد التربوية

١- قَولُ الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ في هذه الآياتِ مِن أصنافِ نِعَمِ اللهِ على العبادِ شَيءٌ عَظيمٌ -مُجمَلٌ ومُفصَّلٌ- يدعو اللهُ به العبادَ إلى القيامِ بشُكرِه وذِكرِه، ويَحُثُّهم على ذلك، ويرَغِّبُهم في سؤالِه ودُعائِه آناءَ اللَّيلِ والنَّهارِ، كما أنَّ نِعَمَه تتكَرَّرُ عليهم في جميعِ الأوقاتِ.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ أنَّه ينبغي لِمن أرادَ أنْ يُضيفَ الشَّيءَ إلى سببِه؛ أنْ يُضيفَه إلى اللهِ مقرونًا بالسَّببِ.

الفوائد التربوية

٣- لا أحدَ أعظَمُ إحسانًا مِن اللهِ سُبحانه؛ فإنَّ إحسانَه على عبدِه في كلِّ نفَسٍ ولَحظةٍ، وهو يتقَلَّبُ في إحسانِه في جميعِ أحوالِه، ولا سبيلَ له إلى ضبطِ أجناسِ هذا الإحسانِ فَضلًا عن أنواعِه أو عن أفرادِه، ويكفي أنَّ مِن بَعضِ أنواعِه نِعمةَ النَّفَسِ التي لا تكادُ تخطُرُ ببالِ العبدِ، فإنَّه يتنفَّسُ في اليومِ والليلةِ أربعةً وعِشرينَ ألفَ نَفَسٍ، وكلُّ نفَسٍ نِعمةٌ منه سُبحانه، فإذا كان أدنى نعمةٍ عليه في كلِّ يومٍ أربعةً وعشرينَ ألفَ نِعمةٍ، فما الظنُّ بما فوقَ ذلك وأعظَمُ منه ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾، هذا إلى ما يُصرَفُ عنه من المضَرَّات، وأنواعِ الأذى التي تَقصِدُه، ولعلَّها تُوازِنُ النِّعَمَ في الكثرةِ، والعبدُ لا شُعورَ له بأكثَرِها أصلًا، واللهُ سُبحانَه يَكلَؤُه منها باللَّيلِ والنَّهارِ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الأنبياء:٤٢].

المقطع العاشر

الآيات: ٣٥-٤١

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾

معاني الكلمات

تَهْوِي	أي: تَنزِعُ، وتَميلُ.

تفسير الآيات

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥)﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- إذ قال إبراهيمُ: رَبِّ، اجعَلْ مكَّةَ حَرَمًا آمِنًا لأهلِه وسُكَّانِه.

﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾.

أي: وأبْعِدْني وأبنائي عن عبادةِ الأصنامِ، واجْعَلْنا في جانبٍ، والأصنامَ في جانبٍ.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦)﴾.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾.

أي: قال إبراهيم: ربِّ، إنَّ الأصنامَ قد حَرَفَت كثيرًا مِن النَّاسِ عن طريقِ الحَقِّ؛ بسبَبِ افتِتانِهم بها، وعِبادتِها.

﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾.

أي: فمَن تَبِعَني على الإيمانِ بك وتوحيدِك وفِراقِ عبادةِ الأصنامِ؛ فإنَّه مِن أهلِ دِيني، يَستَنُّ بسُنَّتي، ويعمَلُ بمِثلِ عَمَلي.

﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ومَن عصاني فكفَر، وخالَفَ أمْري، فإنَّك غفورٌ رحيمٌ؛ بتوبتِكَ عليهم حتَّى يُؤْمنوا، وهدايتِهم إلى التوحيدِ، وتوفيقِهم للرُّجوعِ مِن المعصيةِ إلى الطاعةِ.

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رضي الله عنهما: ((أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تلا قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ في إبراهيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦] الآيةَ، وقال عيسى عليه السَّلامُ: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فرفعَ يديهِ، وقال: اللهمَّ، أُمَّتي أُمَّتي، وبكى. فقال اللهُ عزَّ وجلَّ: يا جبريلُ، اذهب إلى محمدٍ -وربُّكَ أعلمُ- فسَلهُ: ما يُبكيكَ؟ فأتاهُ جبريلُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ فسَألهُ، فأخبرهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بما قالَ -وهو أعلمُ-، فقال اللهُ: يا جبريلُ، اذهبْ إلى محمدٍ، فقلْ: إنَّا سنُرضيكَ في أُمَّتكَ ولا نَسُوؤُك)). أخرجه مسلم (٢٠٢).

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)﴾.

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾.

أي: ربَّنا، إنِّي أسكَنتُ بعضَ ولَدِي -وهو إسماعيلُ عليه السَّلامُ- في وادٍ لا زَرْعَ فيه ولا ماءَ، عند بَيتِك الذي يَحرُمُ استِحلالُ حُرُماتِه والتَّهاوُنُ به، والاستخفافُ بحَقِّه، والتعرُّضُ له أو لأهلِه بسُوءٍ.

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾.
أي: رَبَّنا، إنّي أسكنتُ بعضَ ذُرِّيَّتي في هذا الوادي المقْفِرِ؛ كي يُقيمُوا الصَّلاةَ عند بيتِك المحَرَّمِ، ويَعْمُروه بذِكرِك وعبادتِك وَحدَك، فاجعَلْ قُلوبَ بعضِ النَّاسِ تُسرِعُ إليهم شوقًا إلى حجِّ بَيتِك الحَرامِ.

﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.
أي: وارزُقْهم مِن ثِمارِ النَّباتِ والأشجارِ بأنواعِها المُختَلِفة، بجَلْبِها إليهم؛ ليَشكُروك على ما رزَقْتَهم، ويكونَ عَونًا لهم على طاعتِك.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨)﴾.
﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾.
أي: ربَّنا، إنَّك تعلَمُ ما نُخفي في قُلوبِنا عند مسألتِنا ودُعائِك، وفي غيرِ ذلك من أحوالِنا، وتعلَمُ ما نجهَرُ به مِن دُعائِنا، وغيرِ ذلك مِن أقوالِنا وأعمالِنا.

﴿وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾.
أي: ولا يخفى على اللهِ أيُّ شَيءٍ في الأرضِ ولا في السَّماءِ.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩)﴾.
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾.
أي: الحَمدُ لله الذي رزَقَني -رَغْمَ كِبَرِ سِنِّي- إسماعيلَ وإسحاقَ.

﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.
أي: وهَبَ لي ربِّي الولَدَينِ؛ لأنَّه يسمَعُ دُعاءَ مَن يدعوه، ويُجيبُ طلَبَ مَن يسألُه.

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠)﴾.

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾.

أي: ربِّ، وفِّقْني لإقامةِ الصَّلَواتِ، بالمحافظةِ على أدائِها بحُدودِها، واجعَلْ مِن ذُرِّيتي مَن يقيمُها كذلك.

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾.

أي: رَبَّنا، واستجِبْ لي دُعائي فيما سألتُك فيه.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)﴾.

أي: ربَّنا اغفِرْ لي ولوالِدَيَّ ولجميعِ المؤمنينَ يومَ تُحاسِبُ عِبادَك يومَ القيامةِ.

الفوائد التربوية

١- قال تعالى على لسانِ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾، وقال أيضًا: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي...﴾، وقال أيضًا: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] فينبغي للإنسانِ أنْ يَشملَ ذريَّتَه في الدُّعاءِ؛ لأنَّ الذُّرِّيَّةَ الصالحةَ مِن آثارِ الإنسانِ الصَّالحةِ، فالذُّرِّيَّةُ صلاحُها له شأنٌ كبيرٌ بالنِّسبةِ للإنسانِ.

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ هذا الدُّعاءُ مِن الخليلِ عليه السلامُ يقتضي إفراطَ خَوفِه على نفسِه، ومَن حصَلَ في رُتبتِه، فكيف يخافُ أن يَعبُدَ صَنمًا؟! لكنْ هذه الآيةُ ينبغي أن يُقتَدى بها في الخوفِ وطلَبِ الخاتمةِ، فإذا كان إبراهيمُ عليه السَّلامُ يَخافُ الشِّركَ

الفوائد التربوية

على نفسِه -وهو خليلُ الرَّحمنِ، وإمامُ الحنفاءِ- فما بالُك بنا نحنُ إذن؟! فلا ينبغي أن نأمَنَ الشِّركَ، ولا أن نأمَنَ النِّفاقَ؛ إذْ لا يأمَنُ النِّفاقَ إلَّا مُنافِقٌ، ولا يَخافُ النِّفاقَ إلَّا مُؤمِنٌ، عن إبراهيمَ التَّيميِّ قال: (مَن يَأْمَنُ البلاءَ بعدَ قولِ إبراهيمَ: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ ؟!).

٣- قولُه: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ليس مُرادُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ أنَّ اللهَ يَغفِرُ لكافرٍ، لكنَّه حمَلَهُ على هذه العِبارةِ ما كان يأخُذُ نفْسَه به مِن القَولِ الجميلِ، والنُّطقِ الحسنِ، وجَميلِ الأدَبِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. قال قَتادةُ: اسْمَعوا قولَ الخليلِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، واللهِ ما كانوا طعَّانِينَ ولا لَعَّانينَ، وكذلك قال نَبِيُّ اللهِ عِيسى: ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨]. أخرجه الطبري (٢٠٨٤٠).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ جملةُ: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ تعليلٌ للدَّعوةِ بإجنابِه عِبادتَها بأنَّها ضلالٌ راجَ بين كثيرٍ مِن النَّاسِ، فحُقَّ للمؤمِنِ الضَّنينِ بإيمانِه أن يخشَى أن تجتَرِفَه فتنتُها.

٥- قولُ الله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ المقصودَ للعاقلِ مِن منافعِ الدُّنيا أن يتفرَّغَ لأداءِ العباداتِ، وإقامةِ الطَّاعاتِ؛ فإنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ بيَّنَ أنَّه إنما طلَبَ تيسيرَ المنافعِ على أولادِه؛ لأجلِ أن يتفرَّغوا لإقامةِ الصَّلَواتِ، وأداءِ الواجباتِ.

الفوائد التربوية

٦- إقامةُ الصَّلاةِ مِن أخَصِّ وأفضَلِ العباداتِ الدِّينيةِ، فمَن أقامَها كان مقيمًا لدينِه؛ لذا قال إبراهيم: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾، ولأهميةِ إقامةِ الصلاةِ لن تكادَ تجدُ ذكرَ الصلاةِ في موضعٍ مِن التنزيلِ إلا مقرونًا بإقامتِها، فالمصلُّون في الناسِ قليلٌ، ومقيمُ الصلاةِ منهم أقلُّ القليلِ.

٧- في قَولِه تعالى عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ دليلٌ على أهميَّةِ الصَّلاةِ، ولا سيَّما في مكَّةَ عندَ بيتِ اللهِ الحرامِ.

٨- أنَّ هِمَّةَ الصَّالحينَ في إقامةِ الدِّينِ، فقد علَّق إبراهيم عليه السلامُ ﴿لِيُقِيمُوا﴾ بـ﴿أَسْكَنْتُ﴾، أي: علةُ الإسكانِ بذلك الوادي عندَ ذلك البيتِ ألا يشغلَهم عن إقامةِ الصلاةِ في ذلك البيتِ شاغلٌ، فيكون البيتُ معمورًا أبدًا، وتهيَّأَ بذلك أنْ يُفرِّعَ عليه الدُّعاءَ لهم بأنْ يجعلَ أفئدةً مِن النَّاس تَهْوي إليهم، فقال: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾.

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ فيه تعليمٌ مِن إبراهيمَ عليه السَّلامُ لأهلِه وأتباعِه بعُمومِ عِلمِ اللهِ تعالى؛ حتى يُراقِبوه في جميعِ الأحوالِ، ويُخلِصوا النيَّةَ إليه.

المقطع الحادي عشر

الآيات: ٤٢-٤٦

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾

معاني الكلمات

تَشْخَصُ	أي: تُرفَعُ وتُفتَحُ فلا تَطرِفُ.
مُهْطِعِينَ	أي: مُسرِعينَ، مُديمِي النَّظَرِ.
مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ	أي: رافِعِيها مع الإقبالِ بأبصارِهم إلى ما بينَ أيديهم، مِن غيرِ التفاتٍ إلى شَيءٍ.
طَرْفُهُمْ	أي: نَظَرُهم وأبصارُهم.
هَوَاءٌ	أي: خالِيةٌ خاوِيةٌ فارِغةٌ.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢)﴾.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾.

أي: ولا تظُنَّ -يا محمدُ- اللهَ الذي مِن سُنَّتِه إمهالُ الظَّالِمينَ، وإنظارُهم مُدَّةً قبل أن يُحِلَّ بهم عِقابَه؛ ساهيًا عن أعمالِ هَؤلاءِ الظَّالِمينَ لأنفُسِهم، كمُشرِكي قَومِك وغَيرِهم، بل هو عالِمٌ بأعمالِهم، وسيُعاقِبُهم على ظُلمِهم؛ فإنَّه سُبحانه يُمهِلُ ولا يُهمِلُ.

عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لَيُملي للظَّالِمِ، حتى إذا أخَذَه لم يُفلِتْه، ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[هود: ١٠٢])). أخرجه البخاري (٤٤٠٩).

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾.

أي: إنَّما يُمهِلُ اللهُ الظَّالِمينَ ويُؤخِّرُ عِقابَهم إلى يومِ القيامةِ الذي ترتفِعُ فيه أبصارُ الخَلقِ، وهم يُحَدِّقونَ بها مَبهُوتينَ خائفينَ، دون أن تَطرِفَ أجفانُهم، أو تَغتَمِضَ أعيُنُهم؛ لشدَّةِ ما أصابَهم من الفزَعِ، وما يَرَونه من عظيمِ الأهوالِ.

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣)﴾.

﴿مُهْطِعِينَ﴾.

أي: يمشُونَ مُسرِعينَ عند خُروجِهم مِن قُبورِهم، ومَجيئِهم لمحشَرِهم، وحضورِ حِسابِهم.

﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾.

أي: رافِعي رُؤوسِهم ينظُرونَ إلى ما بينَ أيديهم، دونَ أن يلتَفِتوا يمينًا أو شِمالًا.

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾.

أي: لا تعودُ إليهم أبصارُهم على ما اعتادُوه، بحيثُ يتمكَّنونَ من توجيهِ أنظارِهم حيث شاؤوا، أو الطَّرْفِ بأعيُنِهم كما أرادوا؛ وذلك لإدامةِ نَظَرِهم إلى ما يُشاهِدونَه مِن أهوالٍ، فأجفانُهم إليها شاخِصةٌ، وأعيُنُهم نحوَها مُصَوَّبةٌ لا تَطرِفُ لَحظةً.

﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾.

أي: وقلوبُهم خاليةٌ، ليس فيها شيءٌ، ولا تعقِلُ شيئًا من شدَّةِ الخَوفِ.

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (٤٤)﴾.

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾.

أي: وخَوِّفِ النَّاسَ -يا محمَّدُ- ما هو نازِلٌ بهم يومَ يأتيهم العذابُ يومَ القيامةِ، فيَحذَروا مِن الأعمالِ المُوجِبةِ لذلك العذابِ.

﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾.

أي: فيقولُ الذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ والتَّكذيبِ، وأنواعِ المعاصي، في ذلك اليَومِ: ربَّنا أمهِلْنا، وأرجِعْنا إلى الدُّنيا زمنًا قليلًا، نُؤمِنْ بك ونوَحِّدْك، ونتَّبِعْ رُسُلَك.

﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾.

أي: فيقولُ الله للظَّالِمينَ الذين سألوه الرَّجعةَ إلى الدُّنيا، مُوبِّخًا لهم: أولمْ تكونوا تحلِفونَ في الدُّنيا أنَّه لا انتقالَ لكم مِن الدُّنيا إلى الآخرةِ، ولا بعْثَ بعدَ الموتِ؟

﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥)﴾.

﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾.

أي: وحلَلْتُم في الدُّنيا في مساكنِ الأُمَمِ السَّابقةِ، الذين ظَلَموا أنفُسَهم بكُفرِهم باللهِ تعالى.

﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾.

أي: وعَلِمتُم بالنَّظَرِ في آثارِهم، والسَّماعِ لأخبارِهم كيف أهلَكْناهم، حينَ أصَرُّوا على كُفرِهم وطُغيانِهم.

﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾.

أي: ومَثَّلْنا لكم في القُرآنِ الأمثالَ الواضِحةَ، وبيَّنَّا الأشباهَ؛ لتعتَبِروا بها، لكِنَّكم لم تفعَلوا، فالآن تَسألونَ التَّأخيرَ للتَّوبةِ يومَ أتاكم العذابُ؟! إنَّ هذا غيرُ كائنٍ أبدًا.

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦)﴾.

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾.

أي: وقد مَكَروا مَكرَهم العظيمَ.

﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾.

أي: وعندَ اللهِ عِلمُ مَكرِهم، وجَزاءُ مَكرِهم، فسيُعاقِبُهم بما يستَحِقُّونَ.

الفوائد التربوية

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ هذه الآيةُ بجُملتِها فيها وعيدٌ للظَّالِمينَ، وتسليةٌ للمَظلومينَ.

٢- يجِبُ على كلِّ مَن شاهدَ أحوالَ الماضِينَ مِن الأُمَمِ الخاليةِ، والقُرونِ الماضيةِ، وعَلِمَ ما جرى لهم، وكيف أُهلِكوا أن يعتَبِرَ بهم، ويعمَلَ في خَلاصِ نَفسِه من العقابِ والهَلاكِ؛ قال الله تعالى: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾.

المقطع الثاني عشر

الآيات: ٤٧-٥٢

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾﴾

معاني الكلمات

مُقَرَّنِينَ	أي: مَشدُودينَ.
الْأَصْفَادِ	أي: الأغلالِ والقُيودِ.
سَرَابِيلُهُمْ	أي: قُمُصُهم.
قَطِرَانٍ	القَطِرانُ: مادَّةٌ حارَّةٌ، سَوداءُ اللَّونِ، نَتِنةُ الرَّائِحةِ، شديدةُ الاشتعالِ، تُطلَى بها جُلودُ الإبِلِ الجَربَى؛ لِيَزولَ الجَرَبُ منها.
وَتَغْشَى	أي: تَلفَحُ وتَعلو وتغطِّي.

تفسير الآيات

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤٧)﴾.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾.

أي: فلا تظُنَّ اللهَ -يا مُحمَّدُ- مُخلِفَ رُسُلِه ما وعَدَهم من النُّصرةِ لهم ولأتباعِهم، وإهلاكِ أعدائِهم، وخِذلانِهم في الدُّنيا والآخرةِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾.

أي: إنَّ اللهَ قَويٌّ قاهِرٌ لا يُغالَبُ، ولا يمتَنِعُ عليه شيءٌ أراده، مُنتقِمٌ مِن أعدائِه الكافرينَ.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨)﴾.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾.

أي: إنَّه تعالى ذو انتقامٍ مِن الكافرينَ حينَ تتبدَّلُ صِفاتُ هذه الأرضِ إلى صفاتٍ أُخرَى، ومِن ذلك نَسْفُ جِبالِها، وتفجيرُ بحارِها، وذَهابُ أوديتِها وأشجارِها، وجميعِ ما عليها مِن عِمارةٍ وغيرِها، فلا يبقَى على وَجهِها شيءٌ، وتُبسَطُ وتُمدُّ مَدًّا، وتتبدَّلُ صِفاتُ هذه السَّماواتِ كذلك إلى صفاتٍ أُخرَى، ومن ذلك انتِثارُ كواكِبِها، وكسوفُ شَمسِها، وخُسوفُ قَمَرِها، وانشقاقُها وغيرُ ذلك.

وعن سَهلِ بنِ سعدٍ السَّاعديِّ رَضِيَ الله عنهما قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((يُحشَرُ النَّاسُ يومَ القيامةِ على أرضٍ بَيضاءَ عَفراءَ، كقُرصةِ النَّقِيِّ، ليس فيها عَلَمٌ لأحدٍ)).

أخرجه مسلم (٢٧٩٠).

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

أي: وخرجَ النَّاسُ مِن قُبورِهم أحياءً ظاهِرينَ -لا يُوارِيهم شَيءٌ مِن بِناءٍ أو غيرِه- لِلَّهِ المتفرِّدِ بالمُلْك والخَلقِ والتَّدبيرِ، والعَظَمةِ والكمالِ، الذي قهَرَ كُلَّ خَلْقِه، فهم تحتَ تصَرُّفِه وتَدبيرِه وحُكمِه.

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩)﴾.

أي: وترى- يا محمَّدُ- الكافرينَ يومَ القيامةِ مُقَيَّدينَ بالأغلالِ والقُيودِ.

﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠)﴾.

﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ﴾.

أي: ثيابُهم التي يَلبَسونَها مِن القَطِرانِ.

عن أبي مالكٍ الأشعريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((النَّائِحةُ إذا لم تتُبْ قبل مَوتِها تُقامُ يومَ القيامةِ وعليها سِربالٌ مِن قَطِرانٍ، ودِرعٌ مِن جَرَبٍ)) أخرجه مسلم (٩٣٤)

﴿وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾.

أي: وتلفَحُ وُجوهَ المُجرِمينَ النَّارُ، فتُحيطُ بها مِن كُلِّ جانبٍ، وتَحرِقُها.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١)﴾.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾.

أي: يفعَلُ اللهُ بالمُجرِمينَ ما يفعَلُ؛ ليكونَ في ذلك جزاءٌ للمُسيءِ على إساءتِه، لا ظُلمًا منه سُبحانه، وكما يعاقِبُ من أساء يُثيبُ من أحسَنَ وأطاع.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ سَريعُ المُحاسَبةِ لعبادِه يومَ القيامةِ، لا يخفَى عليه شيءٌ مِن أعمالِهم.

﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٥٢)﴾.

﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾.

أي: هذا القُرآنُ تَبليغٌ مِن اللهِ تعالى إلى جميعِ النَّاسِ؛ لإقامةِ الحُجَّةِ عليهم، والإعذارِ إليهم، وهو كفايةٌ لهم في الموعظةِ والتذكيرِ، وبه يتبلَّغونَ، ويتزوَّدونَ للوُصولِ إلى أعلى المَقاماتِ والدَّرَجاتِ.

﴿وَلِيُنْذَرُوا بِهِ﴾.

أي: وأنزَلْنا القُرآنَ ليُخَوَّفَ النَّاسُ به عِقابَ اللهِ، ويُحَذَّروا من نقمتِه.

﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.

أي: وليعلمَ النَّاسُ بحُجَجِ القرآنِ وبَراهينِه أنَّ اللهَ المعبودَ بحَقٍّ إلهٌ واحِدٌ، لا يستحِقُّ غيرُه العبادةَ.

﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

أي: وليتذَكَّرَ ويتَّعِظَ أصحابُ العُقولِ السَّليمةِ بهذا القرآنِ، فيَهتَدوا إلى العمَلِ بما ينفَعُهم، وتَرْكِ ما يضُرُّهم.

الفوائد التربوية

قال الله تعالى: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ -أي: العُقولِ الكاملةِ- ما ينفَعُهم فيفعَلوه، وما يضُرُّهم فيتركوه، وبذلك صاروا أولي الألبابِ والبَصائِرِ؛ إذ بالقُرآنِ ازدادت معارِفُهم وآراؤُهم، وتنوَّرَت أفكارُهم لَمَّا أخَذُوه غَضًّا طَرِيًّا، فإنَّه لا يدعو إلَّا إلى أعلى الأخلاقِ والأعمالِ وأفضَلِها، ولا يستدلُّ على ذلك إلَّا بأقوى الأدلَّةِ وأبيَنِها، وهذه القاعدةُ إذا تدَرَّبَ بها العبدُ الذَّكيُّ، لم يزَلْ في صعودٍ ورُقِيٍّ على الدَّوامِ في كلِّ خَصلةٍ حَميدةٍ.

قصص الأنبياء

عليهم السلام

قصة موسى عليه السلام

كليم الله موسى عليه السلام

هو أعظم أنبياء بني إسرائيل، كليم الله، أحد أولي العزم من الرسل، النبي الرسول الكريم الذي ما ذُكر نبي في القرآن بعد رسول الله ﷺ أكثر من ذكره، حتى ورد ذكره في كتاب الله تبارك وتعالى ستًا وثلاثين مرة بعد المئة، هو: موسى بن عمران من نسل يعقوب عليه الصلاة والسلام.

أمته التي أرسل فيها هي أعظم الأمم بعد أمة نبينا محمد ﷺ، وهي أفضل الأمم في زمانها كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾ أي: في زمانهم. وأمة نبينا محمد ﷺ خيرٌ منهم، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، كتابه التوراة التي خطها الله تعالى بيده.

السبب في كثرة ذكر موسى عليه السلام:

تكرر اسمه كثيرًا في كتاب الله تبارك وتعالى مما يدلّ على أن الله يريد منا أن نتدبر أحواله، وما لاقى من المشاقّ، والتعب، والأذى، والفتنة، حتى قال الله تبارك وتعالى له: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾، فَفُتِنَ موسى عليه السلام كثيرًا كما سيأتي ذلك مفصلًا في حديثنا عنه صلوات الله وسلامه عليه.

وأُرسلَ موسى إلى أعتى ملوك الأرض في زمانه، أُرسل موسى -صلوات الله وسلامه عليه- في بني إسرائيل، وبنو إسرائيل أمَّةٌ سكنتْ مصرَ، ومكَّن الله لها في الأرض، وهم نسلُ يعقوب عليه الصلاة والسلام، فيعقوب هو إسرائيل.

بنو إسرائيل تسلط عليها فرعون الطاغية المتجبر أعتى ملوك الأرض، وأقدمهم عرشًا، وأثبتهم مُلْكًا، وأعرقهم مدينة، وأشدهم تعبدًا للناس واستكبارًا في الأرض، ادّعى الربوبية، وادّعى الألوهية، قال جلا وعلا عنه: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَى﴾، وقال كذلك: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾، واستهزأ برسول الله موسى -عليه السلام-، وادّعى أنه خيرٌ منه، فقال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾، وهكذا ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

وبلغه أن رجلًا من بني إسرائيل سيكون على يديه ذهاب مُلْكه، وذلك في رؤيا رآها أزعجته.

قال سعيد بن جبير: سألت عبد الله بن عباس عن قول الله عز وجل لموسى -عليه السلام-: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ فسألته عن الفتون ما هو؟ فقال لي: استأنَفَ النهارُ يا ابن جبير -يعني: نحن الآن في وسط النهار- فإن لها حديثًا طويلًا فاتركني، يقول: فلما أصبحت غدوت على ابن عباس لأتنجز منه ما وعدني من حديث الفتون، فقال ابن عباس: تذاكر فرعونُ وجلساؤه ما كان الله عز وجل وعد إبراهيم أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكًا، فقال بعضهم: إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك، وما يشكون فيه، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب عليهما السلام فلما هلك، قالوا: ليس هكذا كان وعد إبراهيم، فقال فرعون: فكيف ترون؟ فأتَمِروا، فأتَمَروا وجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالًا معهم الشِفار -أي: السكاكين- يطوفون في بني إسرائيل، فلا يجدون مولودًا ذكرًا إلّا ذبحوه، خوفًا من أن تصدق مقولة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، ففعلوا ذلك فلمّا رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم والصغار يُذبحون قالوا: تُوشِكون أن تُفنوا بني إسرائيل، فتصيروا أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي كانوا يكفونكم، فاقتلوا عامًا كل مولود ذكر، ودعوا عامًا فلا تقتلوا منهم أحدًا، وكان لا يذبح الإناث؛ لأنه لا خوف من النساء في ذلك الزمان.

ميلاد موسى عليه السلام وخوف أمه عليه:

وولد موسى صلوات الله وسلامه عليه في العام الذي يُذبح فيه الأولاد الذكور، وولد هارون قبله في العام الذي ما كان يذبح فيه فرعون، فلما حملتْ أم موسى بموسى صلوات الله وسلامه عليه؛ خافت عليه؛ لأنه العام الذي يقتل فيه فرعون كل مولود ذكر، فماذا تصنع أم موسى؟ وكان الله تبارك وتعالى قد أخفى حملها، فلم تعلم القابلات، لم يشْعُرْنَ بحملها، فلما وضعته خافتْ عليه خوفًا شديدًا، ماذا تصنع به؟

قال الله تبارك وتعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾، أمْرٌ من الباري -جلا وعلا- لأم موسى: اجعلي موسى في تابوت، واجعلي التابوت الذي هو الصندوق في النهر -نهر النيل- ﴿وَلَا تَخَافِي

وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾، فصنعت ما أمرها الله به.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ أي: إذا وُلِدَ ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ يعني: من قتل فرعون له ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾، وهذا أمر عجيب، بدَل أن يقول لها: فإذا خفت عليه فأخفيه، يقول لها: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾، ابتلاءٌ من الله تبارك وتعالى لأم موسى صلوات الله وسلامه عليه ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾ هذا الوحي وحي إلهام، وليس هو الوحي الذي يأتي الرسل، وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾، ألهم الله تبارك وتعالى أمّ موسى أن تفعل هذا الأمر، لا أن الملك نزَل إليها وكلّمها، وفي هذه الآية -كما يقول أهل العلم- أمران، ونهيان، وبشارتان في سطر واحد:

فالأمران في قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ﴾، **والنهيان في قوله:** ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾.

والبشاراتان في قوله: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وهذه هي بلاغة الكتاب العزيز، بلاغة القرآن الكريم.

موسى عليه السلام يُربى في بيت عدوه:

يقول الله جلَّ وعلا: ﴿فَٱلْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ قَدَّرَ الله ألا يلتقطه أحد غير آل فرعون ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَةُ فِرْعَوْنَ﴾ وكانت امرأة صالحة، وهي: آسية بنت مزاحم، وذلك بمجرد أن رأته امرأة فرعون ألقى الله -جلّ وعلا- محبةَ موسى في قلبها، فأحبته حبًا شديدًا بمجرد أن رأته، فقالت: ﴿قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾، وقد ذُكر أن فرعون لم يكن له أولاد، فقالت: ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ أي: هذا الغلام إذا كَبُرَ ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لا يشعرون أن ذهاب ملك فرعون سيكون على يد هذا الولد.

يقول ابن عباس: «والذي أحلف به لو قال فرعون: نعم قرةُ عينٍ لي ولكِ؛ لكان في هذا هدايته»، ولكن كما قيل: القدر موكل بالمنطق، وذلك أنها لما قالت: ﴿قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾

قال: أما لكِ فنعم، وأما لي فلا، وكان كما قال، فكان قرة عين لآسية امرأةِ فرعون، فكان دخولها الجنة بسببه، وكان هلاكًا ودمارًا على فرعون، حتى دخل النار؛ لأنه قال: «لا»، فلم يكن قرة عين له، بل كان عذابًا على فرعون.

إذا كان الله تبارك وتعالى هو الذي يرعاه ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ من الذي يستطيع أن يؤذيه؟ لا أحد أبدًا، إذا كان الله هو الذي يرعاه سبحانه وتعالى.

إذا أراد الله عز وجل أمرًا كان ولابد:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ بشارة، اطمئني سيرجع إليك موسى، فلا تخافي، ولا تحزني، وحقَّقَ الله لها البشارة الأولى: قال -جلّ وعلا- بعد أن أخذَ آلُ فرعون موسى عليه السلام: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا﴾ يقول أهل العلم: فارغًا من كل شيء إلا من ذكر موسى عليه السلام، لا تفكر في شيء إلّا موسى أين ذهب؟ أخذه اليمّ إلى أين؟ حيّ؟ ميت؟ هل أخذه أحد؟ هل غرق في البحر؟ ما تدري ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ أي: فلما ربط الله على قلبها لم تُبْدِ بِهِ، وذلك أنها لو أبدتْ به لقالت من وجد غلامًا في اليم؟ كادتْ أن تتكلم، كادتْ أن تصيح: ولدي أين ذهب؟ من أخذه ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ ربط الله على قلبها، سَكَّنَها، وهدأها سبحانه وتعالى لتكون من المؤمنين، عند ذلك ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ وتتبعي واسألي بين الناس، أنا ما أستطيع أخشى أنني لو خرجت أصيح بين الناس ولا أتحمل، فذهبت أخته تَقُصُّهُ وتبحث عنه، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ﴾ يعني: عن بُعْدٍ رأته، رأت موسى عليه السلام ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لم تشعرهم أنها تنظر إليه أو تبحث عنه كأنها لا تعرفه، المهم عرفتْ من حديث الناس أن فرعون وزوجته وجدا غلامًا، في اليم فعرفتْ أنه موسى عليه السلام.

موسى عليه السلام يرجع إلى أمه:

تقدير عظيم من الله سبحانه وتعالى، قال: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ لا يقبل ثديًا، كلما جاؤوا بمرضعة رفضها، فلا يقبل مرضعة، فقالت أخته: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ

بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾، قالوا لها: وما يدريك أنهم له ناصحون؟ شكّوا في أمرها، قالت: لشفقتهم عليه، ورغبتهم في قضاء حاجة الملك، ورجاء المنفعة، ولذلك أتوقع هذا.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ﴾ فأخذته إلى أمه، ولِمَ؟ ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ وذلك لما أوحى الله إليها: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ لكن ما المشكلة؟ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فإن الله إذا أراد أمرًا هيأ الأسباب، وأزال الموانع، فيقع ما يريده الله جلّ وعلا.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ بشارة من الله -جلّ وعلا- لأم موسى، وكان كما بشرها الله سبحانه وتعالى، أتاها ابنها إلى بيتها ولكن بدون خوف، ولو ظل عندها في بيتها لكانت ترضعه، وتجعله في التابوت سنين عددًا، لكن هنا يأتيها معززًا مكرمًا من بيت فرعون، وذلك أنهم أتوا بها إلى بيت فرعون، فأرضعته، فقبل ثديها، فقالت لها امرأة فرعون: تبقين عندي، هذا سكنكِ، حتى ترضعي الغلام، فماذا قالت لها أم موسى؟ قالت: لا، أرجع إلى بيتي.

قالت: أعطيك من المال ما تشائين.

قالت: لا، أبقوا ولدكم، وأنا أرجع إلى بيتي. الآن أصبح عندها ثقة تامة بالله تبارك وتعالى، تعرف أنه سيرد إليها بعد ذلك.

فقالت: إذًا تأخذينه معكِ، وتأخذين عليه أجرة، فهي ترضع ولدها بأمان، وتأخذ عليه أجرة، بل ويقال: «هذه أم موسى»، وكانت تخاف أن يقال: «أم موسى»، فأنتِ شرعًا أمه حقيقة، وأمه من الرضاعة أمامهم.

موسى عليه السلام يرجع إلى قصر فرعون:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: قالت امرأة فرعون لأم موسى: ائتيني بولدي، أريد أن يزورني، فواعدتها يومًا أن يأتيها، وقالت امرأة فرعون لخزانها وخدمها: لا يبقين أحدٌ منكم إلّا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة، فاليوم سيرجع البيت بعد سنتين من الفراق، وعلى كل واحد أن يأتيه بهدية لأرى ذلك فيه، وأنا باعثة أمينًا يُحصي كل ما يصنع كل إنسان منكم، فلم تزل الهدايا والكرامة والنِحَل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى حين دخل

على امرأة فرعون، فلما دخل عليها نحلته، وأكرمته، وفرحتْ به، وأهدتْ لأمه كذلك لحسن أثرها عليه؛ لأنها أرضعته، ثمّ قالت: لآتين فرعون فليكرمنه ولينحلنه، فلما دخلتْ به على فرعون جعله فرعون في حجره، فأخذ موسى لحية فرعون فجرها إلى الأرض، فقال الغواة الذين يجلسون مع فرعون لفرعون: ألا ترى ما وعد الله نبيه إبراهيم؟ إنه زعم أنه يعلوك ويصرعك، فلعله هذا الغلام، وعندها أرسل إلى الذباحين ليذبحوه، ويقول ابن عباس: وذلك من الفُتون ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾، فجاءت امرأة فرعون تسعى إلى فرعون، فقالت: ما بدالك في هذا الغلام الذي وهبته لي؟

قال: إنه يزعم أنه سيصرعني. قالت: اجعل بينك وبينه أمرًا يعرف فيه الحق، ائتِ بجمرتين ولؤلؤتين، فقربهنَّ إليه، فإذا أخذ باللؤلؤ واجتنب الجمرتين؛ عرفت أنه يعقل -وكان عمر موسى سنتين-، وإن تناول الجمرتين ولم يرِد اللؤلؤتين؛ علمت أن أحدًا لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل، فقرّبْ ذلك إليه، فتناول موسى الجمرتين. قال: فنزعهما منه مخافة أن يحرق يديه. فقالت المرأة: ألا ترى؟ لا يعقل الغلام. قال: فصرفه الله عنه بعد أن كان همّ به.

من السنتين إلى أن بلغ موسى صلوات الله وسلامه عليه أشُدَّهُ، والله أعلم كيف كانت حياته، ولكن يكفي أنه تربى في بيت فرعون كما قال له فرعون بعد ذلك: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾.

قتل القبطي:

وتمُرُّ هذه المرحلة من حياة موسى صلوات الله وسلامه عليه سريعة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وذلك أن بني إسرائيل كانوا قد عزّوا في زمن موسى بعد أنْ كانوا مهانين يُؤذون، ويُضْرَبُون، ويُقْتَلون؛ لأنهم يقولون نحن أخوال موسى بن فرعون، وما علموا أن موسى من بني إسرائيل أصلًا، لكنّهم يفتخرون أن امرأة من بني إسرائيل أرضعتْ ابنَ فرعون، فيقولون: نحن أخوال موسى من الرضاعة، وكان موسى يدافع عنهم، وذلك أنه يدافع عن الحق صلوات الله وسلامه عليه، وقد كانوا مظلومين، وكانت له مكانة ابن فرعون في ذلك الوقت.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾، دخل وقت الراحة، إما في الظهيرة، وإما بعد العشاء، فوجد رجلين يقتتلان: أحدهما من شيعته -أي: من بني إسرائيل- ﴿وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أي: من القبط ﴿فَٱسْتَغَاثَهُ ٱلَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى ٱلَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ لأن في الأصل أن القبط كانوا هم الظلمة الذين يؤذون بني إسرائيل: يقتلونهم، ويأخذون أموالهم، ويسخرونهم، ويضربونهم.

قال الله جلّ وعلا: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ يعني: ضربه بمَجْمَع يده. وقيل: لَكَمَهُ، فقضى عليه، وكان موسى قويًا صلوات الله وسلامه عليه، فما كان يقصد أن يقتله، ولكن قدَّر الله تبارك وتعالى أن مات ذلك الرجل من تلك الضربة، قال موسى عليه السلام: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ ما قصدتُّ قتله، قصدت ضربه.

وهنا قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ لأنه قتله بدون قصد ﴿فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وكان موسى هنا قبل البعثة، فأي دين كان عليه موسى؟ دين إبراهيم، دين يعقوب، دين يوسف، دين بني إسرائيل، ثمّ قال موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ لن أستخدم هذه القوة لكي أكون عونًا للمجرمين.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ يخاف أن ينكشف أمره وأنه قتل ذلك القبطي، وذلك صار حديثَ المدينة، من الذي قتله؟ وما اطلع على هذا إلّا ثلاثة فقط، الله جلّ وعلا، وموسى عليه السلام، والإسرائيلي الذي كان معه، فلا أحدٌ يدري من الذي قتل هذا القبطي، ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنْصَرَهُ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ يقول لموسى: انصرني على هذا القبطي يا موسى، فاستغاث به اليوم أيضًا، ولأنه كانت له مشاجرة مع قبطي آخر، قال له موسى: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾، كل يوم مشاجرة؟ أمس قُتِلَ الرجل بسببك، واليوم أيضًا مشاجرة؟ ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ * فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ أراد أيضًا أن يضرب القبطي؛ لأن القبط -كما قلنا- كانوا يؤذون بني إسرائيل أذية ما بعدها أذية كما قال الله عز وجل: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾.

قال القبطي: ﴿يَامُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾ نحن قلنا: لم يعلم إلا ثلاثة، ولا يدري القبطي أن موسى قتل نفسًا بالأمس.

قال أهل العلم: إنما الذي قال هذا هو الإسرائيلي، وذلك أن موسى لما غضب عليه وقال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ وجاءه مغضبًا ظنَّ الإسرائيلي أن موسى سيضربه هو؛ لأنه هدده بقوله: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾، فخاف أن يقتله موسى، أو أن يضربه صلوات الله وسلامه عليه، فقال: ﴿أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾، فسمع القبطي، وهنا قال: إذًا موسى هو الذي قَتَل القبطي، فهرب القبطي، وصار يصيح: موسى القاتل، موسى القاتل، وذهب إلى فرعون يخبره أن موسى هو القاتل، الإسرائيلي الذي دافع عنه موسى هو الذي فضحه، وقال: ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

عندها خاف موسى أكثر، مِنْ قبل خاف أن يُعْرف، والآن عُرِف أن موسى هو القاتل، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ أي: يمشي مشيًا سريعًا أو يركب، المهم جاء سريعًا، وهذا الرجل ظاهره أنه من آل فرعون، فكما أنّ آسيةَ امرأةٌ صالحة، كذلك لا يخلو هذا المجتمع القبطي الكبير من أن يكون فيه أناس صالحون، فجاء الرجل إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه، قال: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّاصِحِينَ﴾.

موسى في مدين:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ إذًا بَيَّن الله تبارك وتعالى أن موسى صلوات الله وسلامه عليه توجه إلى مدين، ومدين بلدة في الأردن، قال: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أخذ منها بعض أهل العلم أنه ما كان يقصد مدين، وإنما كان يقصد الهروب من مصر، وسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفّقه إلى بلد طيب، فوفّقه الله إلى مدين.

قال الله جلّ وعلا: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾، وماء مدين بئر يسقي منه أهل مدين وجد عليه أمة -أي: جماعة- من الناس يسقون، ووجد امرأتين تذودان؛ أي: تمنعان غنمهما من الدخول مع غنم الناس، ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ لأن الأمر لفت نظره، أمر غريب هما جاءتا لتسقيا الغنم، وهنا تمنعان الغنم من أن تسقي أو تشرب الماء ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ ٱلرِّعَاءُ﴾ أي: نحن ممنوعتان

من السقي، ونحن نَمْنع غنمنا؛ لأنها بهائم لا تفهم، حتى يسقي الرعاة جميعًا، ويذهبون، ثمّ نأتي نحن ونسقي لضعفنا، وقبل أن يسألهما موسى -صلوات الله وسلامه عليه- ما مِنْ رجلٍ يأتي ليسقي لكما؟ ما مِنْ أخٍ؟ ما مِنْ زوجٍ؟ قالتا: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ يعني: قبل أن تسأل: السبب الذي من أجله نحن نسقي الغنم، ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ أي: دخل بين الناس، وسقى لهما مع الرعاء صلوات الله وسلامه عليه، حيث أخذته الغَيْرة والحمية لهاتين المرأتين، ورأى أنَّ هؤلاء القوم فيهم غلظة، وسوء أدبٍ مع هؤلاء النساء الضعيفات، فلذلك سقى لهما صلوات الله وسلامه عليه، وذلك أنّ أول من يسقي عادة: الأقوياء، فيأخذون الأمر بالقوة.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ أي: بحث عن ظل يجلس فيه، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ يشكو إلى الله فقره، ولكن بأدب، أنت يا رب أعطيتني خيرًا عظيمًا، ومع ذلك أحتاج إلى زيادة فضلٍ، ولذلك الإنسان المؤمن دائمًا لا ينسى فضل الله عليه، وإذا أراد أن يسأل الله سبحانه وتعالى، فإنه يُستحب له كذلك أن يذكر فضل الله عليه.

قال الله جلّ وعلا: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ مباشرة استجاب الله سبحانه وتعالى له، و(الفاء) هنا تفيد التعقيب؛ أي: مباشرة، ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ ولم يأته الأب؛ لأنه لو كان يستطيع أن يأتيه؛ لجاء وسقى الغنم ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ﴾ لِمَ؟ ﴿لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، فذهب موسى عليه السلام إلى أبيهما ودخل عليه يقول الله جلّ وعلا: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ يعني: أخبره بقصته، وكيف أنه خرج من مصر، وكيف أنّ فرعون يذبح أبناءها، ويستحيي نساءها، وأنه خرج خائفًا، وكيف ألقته أمه في اليم، وتربى في بيت فرعون وقتل الرجل، وهكذا ذكر قصته لشعيب عليه السلام أو للرجل الذي جلس عنده الذي هو أبو المرأتين ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ قال له الرجل: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

زواج موسى عليه السلام:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا﴾ لما رأتْ هذا المنظر، وهذا الكلام من موسى، ومن أبيها؛ قالت: ﴿يَاأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾، هو غريب محتاج إلينا، ونحن محتاجون إليه ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ

﴿ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ يعني: لو بحثتَ عن شخص تستأجره لما وجدت مثله، فهو قوي دخل بين الرجال وسقى لنا، وأمين حيث إنه لما سقى لنا تركنا، ولم يكلمنا، ولم يطلب أجرًا.

واقتنع الأب بكلام ابنته، فقال له: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ تكون أجيرًا، وهذا يكون مهرًا، فليس شرطًا أن يكون المهر مالًا، ولذلك النبي ﷺ زَوَّجَ امرأةً لرجل بما معه من القرآن، على أن يعلمها إياه[1]، قال: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ وجزاك الله خيرًا، قال: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ فليس المقصود أن أشقَّ عليك، ولكن -أيضًا- لا يمكن أن يكون زواج بدون مهر، فقال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، قال له موسى: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ وتم الاتفاق بين موسى عليه السلام والرجل.

المعروف لا يضيع:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: «جلس إلى الظل، وهو صفوة الله من خلقه، وقد ذُكِرَ أن بطنه لصق بظهره من الجوع، وكان لا يجد إلّا ورق الشجر ليأكله، وبعض البقول».

ولما صنع موسى عليه السلام هذا الجميل في المرأتين؛ كان الجزاء من الله عز وجل سريعًا، فبمجرد أن جلسّ إلى الظل جاءته إحداهما: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، وهو كما قال الله عز وجل: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾.

بعد ذلك مرّتْ السنون، وموسى صلوات الله وسلامه عليه في مدْين بقي فيها عشر سنوات، وقيل أكثر، حتى ذهب كثير من أهل العلم إلى أن موسى صلوات الله وسلامه عليه بقي في مدين عشرين سنة، لكن القرآن الكريم لم يذكر لنا ماذا وقع من موسى خلال هذه السنوات أبدًا، كما هو الحال بالنسبة للسنوات التي قضاها في بيت فرعون إلى أن بلغ أشده.

والسبب في عدم ذكر عدد السنوات أن القرآن الكريم ليس كتاب تاريخ بحيث يذكر لك كل يوم ماذا صنع موسى، وإنما هو كتاب هداية يعطيك ما ينفعك ويذكر لك ما يقيك النار ويُدخلك الجنة.

---

١ أخرجه البخاري (٥٠٢٩)، ومسلم (١٤٢٥).

موسى عليه السلام يتوجه إلى مصر بعد قضاء الأجل:

قضى موسى الأجل، وأتمه على أكمل وجه، كما قال ابن عباس: إن رسول الله إذا قال فعل. وبعد ذلك توجه بأهله إلى مصر حيث أسرته هناك، وقومه، وبلده الذي نشأ فيه، وهو لا يعلم في ذهابه ذلك ما سيحدث له من الإكرام من رب العزة تبارك وتعالى.

خرج من قومه خائفًا يترقب، ومرّتْ عشرون سنة، أو قريبًا من ذلك، وما علم صلوات الله وسلامه عليه أن الله -جلّ وعلا- سيناديه وسيكلمه ويناجيه، وذلك بالوادي المقدس، فسار بأهله ومعه قطيع من الغنم متجهًا إلى مصر.

خرج بأهله إلى مصر، وهم في الطريق أبصر نارًا من بعيد، فقال لأهله: ﴿آمْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾، قال أهل العلم: **وهذا يدلّ على عدة أمور:**

الأول: أن موسى كان تائهًا في الطريق ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ يعني الطريق، وفي آية أخرى: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ يعني: مَنْ يهديني الطريق.

الثاني: ظلمة الليل الشديدة، ولذلك أراد جذوة من النار أو قبسًا من نور يهتدي به صلوات الله وسلامه عليه.

الثالث: البرد كان شديدًا لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

بداية الوحي لموسى عليه السلام:

قصّ الله علينا قصته، فقال جلّ وعلا: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ * اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ

مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ آياتٌ واضحةٌ تمامًا تبين لنا ما حدث لموسى لما ذهب إلى تلك النار.

وقال جلّ وعلا كذلك في سورة طه: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ * إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ * وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ * وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى * اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ هذه منّة أخرى مني لك، سأشد عضدك بأخيك، **وفي هذه الآيات أمور، منها:**

الأول: إثبات صفة الكلام لله سبحانه وتعالى، وأنه كَلَّمَ موسى، ولذلك يقال لموسى: (كليم الله)، والله -جلّ وعلا- يتكلم متى شاء، كيف شاء بما شاء سبحانه وتعالى.

الثاني: قول الله تبارك وتعالى لموسى عن العصا: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ فلما ألقاها؛ فإذا هي تسعى كأنها جانّ، والجانّ هي الحيةُ العظيمةُ السريعةُ الحركة، أمْرٌ مخيف لما رآه موسى -صلوات الله وسلامه عليه-، ذُهِلَ من النار ووضْعِها، وذُهِلَ من الصوت، وهو لا يراه، وذُهِلَ من العصا لمّا ألقاها فإذا هي تسعى كأنها جانّ، ذُهِلَ -صلوات الله وسلامه عليه- في هذه الليلة المظلمة، عندها قال الله جلّ وعلا: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ ضع يدك على قلبك يذهب كل شيء مِنْ الرهبة والخوف، وهكذا المؤمن إذا أنسَ بالله ولجأ إليه فإنه يُذهب عنه كل شيء يرهبه، ولا شك أن هذا أمرٌ عظيمٌ وخارقٌ للعادة، وقاطع بأن الذي يكلمه هو الذي يقول للشيء كن فيكون، وهو الفعال لما يريد.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ ما المآرب الأخرى؟ يقال: إن الحجاج بن يوسف الثقفي لقي أعرابيًا فقال له: من أين أقبلت يا أعرابي؟ قال مِنْ البادية: قال: وماذا في يدك؟ قال: عصاي أركزها لصلاتي، وأعُدُّها لعَدَاتي، وأسوق بها دابتي، وأقوى بها في سفري، وأعتمد بها في مشيي؛ لتتسع خطوتي، وأثب على النهر، وتؤمنني من العَسَرِ، وأُلقي عليها كسائي، فيقيني الحر، ويدفئني من القَرِّ، وتُدْني إليّ ما بَعُد عني، وأقرع بها الأبواب، وأتقي بها عقْرَ الكلاب، وتنوب عني الرمح في الطعن، وعن السيف عند منازلة الأقران، ورثتها عن أبي، وسأورِّثُها ابني، وأهشُّ بها على غنمي، ولِيَ فيها مآربُ أخرى.

والله تبارك وتعالى قال: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ ليس برصًا، ولا بهقًا، وإنما هو نور، ولذلك قال أهل العلم: كانت مثل القمر تتلألأ.

بقيتْ أمور، وهي قول الله تبارك وتعالى لموسى: ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ فمن كان في النار؟ ومن كان حولها؟ الصحيح في هذه المسألة ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: الذين حضروا عند النار في ذلك الوقت، وهم موسى والملائكة الذين أرسلهم الله جلّ وعلا، وإن كانوا لم يُذكروا نصًا في كتاب الله سبحانه وتعالى، أما الله جلّ وعلا فكلَّم موسى وهو مستوٍ على عرشه فوق سماواته جلّ وعلا؛ فَبُورِك موسى وبُورِك الملائكة، وبُوركت النار، وبُورِكت البقعة التي فيها تلك النار، ﴿نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ ٱلْوَادِي ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَارَكَةِ﴾ بقعة مباركة، ورجل مبارك، وملائكة مباركون، وشجرة مباركة ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

أقسام البركة:

قال أهل العلم: البركة هي كثرة الخير، وتكون في أمور: في الأقوال، والأفعال، والأماكن، والأزمنة، وأمور أخرى:

فأما في الأقوال: فكتاب الله سبحانه وتعالى كتابٌ مباركٌ، والبركةُ فيه ظاهرة، فهو رحمةٌ، وهو شفاء، وهو شفاعة، وهو أجر، عندما تقرؤه تأتيك البركة من كل جهة.

وأما في الأفعال: كطلب العلم، فيبارك الله لك في وقتك، ويبارك الله لك في علمك، ويبارك الله لك في الأجر الذي تأخذه، ويبارك الله لك فتعبد الله على بينة من أمرك.

وأما في الأماكن: فالمساجد مباركة، خاصةً المساجد الثلاثة، ومكّة مباركة، والمدينة مباركة، وهذا الوادي مبارك، والشام مباركة، فيجعل الله تبارك وتعالى البركة في هذه الأماكن سبحانه وتعالى.

وأما في الأزمان: فرمضان مبارك، وليلة القدر مباركة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾، وعشر ذي الحجة أيام مباركة.

وأما الأمور الأخرى: فماء زمزم مبارك[1]، وزيت الزيتون مبارك[2]، ولعق الأصابع بعد الأكل فيه البركة[3]، والخيل جعل الله فيها البركة[4].

وهناك أشخاص مباركون: فمحمد ﷺ مُبَارَكٌ، وموسى عليه السلام مبارك، باركه الله: ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، وعيسى عليه السلام مبارك ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾، وهذه بركة يجعلها الله في أنبيائه ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

موسى عليه السلام يبدأ في تبليغ رسالته:

أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام وبَيَّن له أنه مبعوث من عنده، وأنه رسول وأراه الآيات الدالة على صدقه، والعصى التي ألقاها، ثمّ ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾، ثمّ أخذها فإذا هي عصا، ثمّ أدخل يده، فإذا هي بيضاء، ووضع يده على صدره، فذهب الرهب عنه، وسمع كلام الرب وأنِسَ به صلوات الله وسلامه عليه، واطمأنتْ نفسه، أدرك أهمية المسألة، وضخامة الأمر والمهمة التي أوكلها الله إليه، فذكر لله سبحانه وتعالى أمورًا يحذرها، ثمّ طلب أشياء من الله عز وجل.

---

١ أخرج مسلم (٢٤٧٣) أن النبي ﷺ قال عن زمزم "إنها مباركة إنها طعام طعم" وفي رواية "وشفاء سقم".

٢ قال النبي ﷺ: "كلوا الزيت وادهنوا به، فإنه من شجرة مباركة" أخرجه الترمذي (١٧٧٤) من حديث عمر رضي الله عنه.

٣ عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ أمر بلعق الأصابع والصحفة، وقال: "إنكم لا تدرون في أيِّهِ البركة" أخرجه مسلم (٢٠٣٣).

٤ قال النبي ﷺ: "البركة في نواصي الخيل" أخرجه البخاري (٢٨٥١)، ومسلم (١٨٧٢).

فالأمور التي يحذرها: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ وقال: ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾.

والأمور التي يرجوها: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾، وذلك أنهم قالوا: إن هارون كان أفصح من موسى؛ لأن موسى لم يعشْ مع بني إسرائيل ومع القبط كما عاش هارون، وذلك أنه عاش في أهل مدين قريبًا من عشرين سنة، فهارون كان في بني إسرائيل ومع القبط، فكان أفْصَحَ من موسى صلوات الله وسلامه عليه، وقيل غير ذلك كما جاء عن مجاهد وغيره أن موسى صلوات الله وسلامه عليه كان قد اختبره فرعون لما كان صغيرًا عندما أخذَ بلحية فرعون، فجرها إليه فغضب فرعون، أراد أن يفْتِكَ به ويقتله، فخافت آسية على موسى، وقالت: اختبره، ضع له جمرة وتمرة، فإن أخذ التمرة فدونك فاقتله، وإن أخذ الجمرة، فإنه لا يفقه، ولا يعي، ولا يدري ما يصنع، قال: نعم أفعل فوضعت لموسى تمرة وجمرة، فأوحى الله إليه أن يأخذ الجمرة، فأخذها ووضعها على لسانه، فكان في لسانه شيء من الثقل لأجل تلك الجمرة، ولذلك يقول عنه فرعون: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يعني: أن كلامه ليس فصيحًا.

وقال: ﴿وَٱجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾، وأن يكون ﴿هَارُونَ أَخِي ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ يكون نبيًا، ويكون لي ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ إذا كذبوني.

قال الله جلّ وعلا: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى﴾، فاستجاب الله لموسى، ووهب له أخاه هارون نبيًا معه ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾، وقال: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾، ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَالِبُونَ﴾.

فاتجه موسى عليه السلام إلى فرعون يدعوه إلى الله سبحانه وتعالى، ومعه هارون عليه السلام بعد أن جعله الله عز وجل نبيًا مِنّة منهُ عليهما.

وقد سمعت عائشة رضي الله عنها رجلًا يقول لأناس يسألهم وهم سائرون إلى الحج قال: من هو الأخ الذي له مِنّة عظيمة على أخيه، ولم يكن لأحد مِنّة مثلها؟ فسكت الناس، ولم يعرفوا الجواب، فنادت عائشة -وهي في هودجها-، فقالت: هو موسى بن عمران حين شفع في أخيه هارون فأُوحي إليه فكان نبيًا، ولهذا قال الله له: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾،

عندها اتجه موسى إلى مصر مطمئنَّ القلب، فقد كان رجلًا عاديًا ثمّ صار نبيًا رسولًا.

ذهب موسى إلى أخيه هارون، وأخبره البشارة، وهي أن الله سبحانه وتعالى اختاره نبيًا معه، وأنهما مأموران بدعوة فرعون، قال الله جلّ وعلا: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ تجبر وطغى، والطغيان هو مجاوزة الحد، ولذلك يقال: طغى الماء أي تجاوز حده: ﴿إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى * فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾.

معية الله عز وجل لموسى وهارون عليهما السلام:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ هذه هي المعية الخاصة، وذلك أن معية الله جلّ وعلا لعباده تنقسم إلى **ثلاثة أقسام:**

القسم الأول: معيةٌ عامة يشترك فيها الإنس والجن، بل والبهائم، ويشترك فيها البَرّ والفاجر، ويشترك فيها المسلم والكافر، وهي المعية العلمية، وهي في قول الله تبارك وتعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ وهذه معية لكل الخلق لا تميز لأحد فيها، ولا فضل لأحد فيها.

القسم الثاني: معيةٌ خاصةٌ بأوصاف كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقُوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، فكل تقي، وكل محسن، وكل صابر؛ فالله معه، فمن اتصف بهذه الصفات فالله معه، وهذه المعية فيها نصرة وتأييد ومحبة من الله سبحانه وتعالى.

القسم الثالث: المعية الخاصة بالأشخاص، كما في هذه الآية ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾ أي: يا موسى ويا هارون أنا معكما أنتما دون غيركما، وكما في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أي: أنا وأنت فقط مع أن كفار قريش كانوا على باب الغار، لكن الله ليس معهم، وهذه معية خاصة بشخص معين، خَصّ الله بها موسى وهارون، وخَصّ الله بها محمدًا وأبا بكر، وهي تستلزم النصرة، والمحبة، والتأييد، والتوفيق من الله تبارك وتعالى.

المواجهة بين موسى عليه السلام وفرعون:

ذهب موسى رابط الجأش قويًا، واثقًا بنصر الله له، فدخل على فرعون، ومعه أخوه هارون، فكانت المناظرة بينه وبين فرعون، قال موسى لفرعون: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾، قال فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ يدّعي أنه لا يعرف رب العالمين!

قال موسى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾، فالتفتَ فرعون إلى من عنده قائلًا: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾، فاستنكر فرعون ذلك فموسى يقول: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، وفرعون يدّعي الربوبية، ألست ربكم؟ ألست إلٰهكم؟ كان يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَى﴾، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي﴾ هذا كلام غريب أسمعه اليوم، يدعي أن هناك ربًا غيري ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾، فالتفت إليهم موسى صلوات الله وسلامه عليه، وقال لهم: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وكأنه يقول لفرعون إن كنت ربًا؛ فأين آباؤك؟ أربٌّ وله أب؟ كيف يكون هذا؟ بل هذا ربك وربُّ آبائك الأولين وربكم أنتم أيها الجالسون عند فرعون ﴿وَرَبُّ آبَائِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فماذا قال فرعون؟ قال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

قال موسى ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، فلم يجد جوابًا إلّا أن قال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ هذا هو الجواب: منطق استخدام القوة وإظهار العضلات منطق الغاب.

قال موسى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾، وذلك أن موسى صلوات الله وسلامه عليه كان أسمر اللون، ليس بأسود، فأخرج يده، وإذا هي تتلألأ مثل القمر، لا برص فيها، بيضاء، وهنا قال فرعون: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ فرعون يستشير من عنده! ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؟

وفي موضع آخر يقول الله تبارك وتعالى عن فرعون أنه قال لموسى:﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾.

وكان مما قال فرعون لموسى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ﴾.

وهنا ذكر فرعون **ثلاثة أمور**:

الأمر الأول: ألم نربك فينا وليدًا؟

الأمر الثاني: أنك لبثتَ فينا من عمرك سنين.

الأمر الثالث: أنك فعلت فعلتك، وأنت من الكافرين.

يريد بذلك أن له مِنّةً على موسى عليه السلام، ويُذكّره بقتله للقبطي دون سبب، وعندها قال موسى: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ ٱلضَّالِّينَ﴾، ما كنت رسولًا، وهذا كما قال الله تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ أي: ضالًا عن الرسالة، ليس ضالًا بمعنى أنه كان كافرًا، فلم يكن نبيٌ من الأنبياء كافرًا، وإنما كان ضالًا عن الرسالة، لا يعرف رسالة مَنْ سبقه، ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ ٱلضَّالِّينَ﴾ قبل أن أُبعث فعلت هذه ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ لأني كنت أعلم أنكم ظلمة؛ لأني ما قصدتُّ قتله، فكنتم ستظلمونني، ولذلك خِفْتُ منكم، ففررت وتركت مصر وأهلها.

ثم قال: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ أي: بعد أن تركت مصر وهب لي ربي حكمًا ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، ثم قال له: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

وهنا لأهل العلم قولان: ما معنى قول موسى صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾؟ هل هو ينكر على فرعون أو يمتدحه بذلك الكلام؟ **قولان:**

القول الأول: لا فضل لك يا فرعون، فهذه النعمة التي تَمُنّها عليّ أنك ربيتني وليدًا ولبثت في بيتك؛ السبب في هذا أنك كنت تقتل الأطفال، وما كان لنا من سبيل إلا أن ألقتني أمي في اليمّ، تَمُنّ عليّ أنك ربيتني؟ أنت السبب؛ لأنك كنت ستقتلني لولا إلقائي في اليمّ، فهذا يكون على سبيل الإنكار على فرعون.

القول الثاني: أن موسى بهذه الكلمات يتلطف مع فرعون، كأنه يقول له: ربيتني وليدًا، ولبثت كثيرًا مِنْ عمري عندكم، وفعلت فعلتي ولم تقتلوني، فأكمل معروفك وأرسل معي بني إسرائيل، وهذا مصداق قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾.

قال موسى لفرعون: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا

الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾.

والآن تتدخل حاشية فرعون -بطانة السوء- بعد أن قال فرعون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾.

قالت الحاشية: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾، هذه الحاشية بدل أن تقول لفرعون لعله صادق، لعله رسول، قالت: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أمهلهما ﴿وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾، فالتفت إليهم موسى، وقال: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُونَ﴾، وهنا تكلم فرعون، وتكلمت الحاشية معه: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وبعد أن قامت الحجج على فرعون وظهر له أن موسى عليه السلام ليس بساحر، قال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾، وأرسل فرعون في المدائن حاشرين حتى يأتوه بكل ساحر عليم، وواعد موسى، وقال له: ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾، يعني: وسط، وسط المدينة لا جنوب، ولا شمال، ولا شرق، ولا غرب، وهذا هو ما أراده موسى عليه السلام حتى يتيسر له أن يدعو الناس جميعًا، فوقع فرعون في ذلك، وأمر بجمع الناس؛ لأنه ظن أن الذي جاء به موسى سحر وغره أصحابه وحاشيته، وقالوا: نأتيك بكل ساحر عليم، ففرعون وجدها فرصة حتى يبطل ما جاء به موسى فقال لموسى: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ وسط يحضره الجميع لا يعجز عنه أحد، ولا يتركه أحد.

قال موسى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ مكان وسط، ووقت وسط كما تريد، وليكن أيضًا في يوم الزينة، يوم العيد حيث جميع الناس يجتمعون، جميع الناس فارغون ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ أي: يكون هذا الوقت في الضحى وفي النور، يجتمع فيه جميع الناس، قال فرعون: نعم، وقال موسى: نعم.

المواجهة الكبرى:

الله سبحانه وتعالى ذكر السحرة، وذكر أنهم أتوا بكل ساحر عليم، لكن لم يذكر لنا الله سبحانه وتعالى عددَ السحرة أبدًا، والمهم أنهم أحسن السحرة عندهم، وليس فيهم حسن.

وأول ما جاء السحرة اتجه إليهم موسى -صلوات الله وسلامه عليه-، وقال: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أنتم تعلمون أن هذا سحر، أنتم تعلمون أنكم ضالون مضلون، ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، فإن فعلتم ﴿فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾، سحتُ الشيء استئصاله، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ لما قال لهم هذا الكلام صار بينهم نزاع على ماذا؟ نزاع هل هذا ساحر أو رسول؟

قالوا: ﴿وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَىٰ﴾ ما هي النجوى التي أسروها؟ علمُها عند ربي سبحانه وتعالى، لكن يقول أهل العلم: إنهم ربما أسرّوا أنه إن كان هذا الرجل صادقًا -يعنون موسى- وأنه نبي فسنتبعه، أو ﴿وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَىٰ﴾ أنهم ترددوا، هل يُلقون أو لا يُلقون؟ حتى لا يفضحهم، وقيل: إن كان هذا نبيًا؛ فإن الله سيظهره، وإلا ظهرنا عليه، والله أعلم ماذا أسروا، لكنهم تنازعوا كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَىٰ﴾.

ثُمَّ التفتوا إلى موسى، وقالوا: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ يخيرونه كأنهم يثقون بأنفسهم، تريد أن تُلقي أم تريد أن نلقي نحن، لا يختلف عندنا الأمر، ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ وهذا يبين أيضًا ثقته التامة بالله عز وجل؛ لأنه يعلم أن الله معه سبحانه وتعالى قال: ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾، ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ أنتم تأتون بالسحر، وأنا آتي بالمعجزات، وآتي بآيات بينات ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، الله معي وأنتم مَنْ معكم؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، وفي آية أخرى: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاؤُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾، سحروا أعين الناس، واسترهبوهم، وخوفوهم، تصوروا السحرة كلٌ يُلقي عصاه وحبله، فترى حيات تسعى، أصاب الناس رهبةٌ عظيمةٌ وخافوا خوفًا شديدًا ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: أوهموهم أن هذه الحبال، وهذه العصي انقلبت إلى حيات، ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ خوفوهم بكثرة الحيات، ﴿وَجَاؤُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ بَيَّن الله أن السحر عظيم، ولكن الذي أبطله أعظم.

قال الله تبارك وتعالى عن فرعون لما أمره موسى -صلوات الله وسلامه عليه- أن يجمع الناس في يوم الزينة: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ * قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ * قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ اتّفِقوا على كلمة واحدة، لا تتفرقوا، اتركوا النزاع الآن، لا وقت للنزاع، ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ حتى يكون هذا أرهب لعدوكم، وأرهب للناس، كلكم تلقون في وقت واحد ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ استعلوا بما عندكم، لماذا؟ لأن كل الناس يجتمعون الآن، ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ حتى موسى خُيِّل إليه أنها تسعى، ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ خيفة من ماذا؟

قالوا: أوجس في نفسه خيفة أن يتأثر الناس بهم.

وقالوا: أوجس في نفسه خيفة ألا ينتظر الناس ما يظهر الله على يديه.

وجاء الجواب من الله: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾، أنت أعلى منهم، لا يغرك كثرتهم، لا تغرك حبالهم، ولا عصيهم، ولا تخييلهم، ولا من يساندهم، أنت واحد، ولكنك الأعلى، ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾، أنت معك معجزة، معك آية بينة، معك برهان، وهؤلاء معهم السحر، ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾.

وهذا في زمن موسى عليه السلام وفي زمننا وإلى يوم القيامة؛ الساحر لا يفلح؛ لأنه عدو لله، ومن عادى الله هل يفلح؟! ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ كُلَّ الذي يأفكون، حية واحدة ابتلعت جميع العصي، وموسى عليه السلام انقلبتْ عصاه إلى ثعبان حقيقي؛ لأن الله هو الوحيد -سبحانه- الذي يغير الأشياء من حقيقة إلى حقيقة أخرى، لكن غير الله لا يملك ذلك، وإنما يملكون أن يسحروا أعينَ الناس، كما قال الله لموسى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ إذًا حقيقتها أنها لا تسعى، وإنما يخيل إليهم ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾، فكانت المفاجأة:

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ أكْفَر الناس بعد فرعون سجدوا لله قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ لأنهم علموا أن الذي جاء به موسى عليه السلام ليس بسحرٍ، فهم أصلًا تنازعوا بينهم، وأسروا النجوى -والله أعلم بما أسروا-، لكن لما رأوا الحق ورأوا عصا موسى أنها فعلًا انقلبت إلى ثعبان حقيقي ابتلع عصيَّهم، وابتلع حبالَهم؛ عرفوا أن موسى محقٌ صلوات الله وسلامه عليه.

نقاش فرعون مع السحرة:

والآن تعالوا نقرأ النقاش الذي كان بين فرعون والسحرة لما أتى بهم فرعون، وقال لهم: إن موسى عنده عصا تنقلب إلى حية، ويدخل يده ويخرجها بيضاء، فماذا أنتم صانعون؟ قالوا: نظهر عليه ولكن ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَالِبِينَ﴾ قال: نعم؛ لأنه صُدِمَ بما أتى به موسى صلوات الله وسلامه عليه ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أكدها **بأربعة تأكيدات:**

الأول: أكدها بنعم.

الثاني: أكدها بـ «إنّ».

الثالث: أكدها باللام.

الرابع: جعلهم من المقربين.

فلما ألقى موسى عليه السلام عصاه، وظهر الحق، وذلك أن الحق أبلج، والباطل لجلج، لا يبقى، فأدرَكوا حقيقة الأمر، وأدركوا أن الذي مع موسى نبوة وليست سحرًا ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾، فصُدِمَ فرعون وقال: سحرتي وعمدتي يؤمنون؟! ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ قال: موسى هو الذي علَّمكم السحر، وهو يدري أن كلامه غير صحيح؛ لأنه قال قبل ذلك: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ﴾ إنه يدري أن موسى ولدته أمه، ثم أخذه وتربى في بيته سنين، ثم فَر والآن رجع، فمتى علمهم السحر؟! ومتى التقى بهم؟! ومتى رآهم؟! خاصةً إذا علِمنا أن السحرة هؤلاء جاؤوا من كل فجٍّ عميق، ﴿وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ حُشِروا من كل مكان، من كل صوب، ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ كل واحد جاء من مدينة، فمتى التقى بهم

موسى؟! ومتى علَّمهم السحر حتى يقول هذا الكلام؟! لكنه كلام المصاب، أُصِيب في مقتل فلم يدْرِ ماذا يقول، ولم يدْرِ ما الذي يخرج من رأسه، ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ كيف تؤمنون به قبل أن آذن لكم؟ فكان الجواب من السحرة: ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ افعل ما تشاء، ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ وفي موضع آخر: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾، ثم قالوا: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ * وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾، ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

فليس من السهل على إنسان كان يدعي الألوهية أن يذعن ويرضى ويسكت عن مثل هذا الوضع، فيصير عبدًا كغيره من العبيد، بعد أن كان يقول: إن الناس كلهم عبيد لي، الآن أنا أصير عبدًا لغيري، أصير عبدًا لله؟! ما استطاع أن يتخلى عن جميع الامتيازات التي كان يستأثر بها من دون الناس.

هل قتل السحرة أو لا؟ **رو ايتان:**

الرو اية الأولى: أنه قتلهم وصاروا شهداء.

والرو اية الثانية: أنه تركهم.

المهم أنه ترك موسى عليه السلام وظل موسى بعد ذلك يدعو في مصر، وهنا فرعون أحبَّ أن يلقي آخر حباله، فنادى هامان، فقال: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ كاذبًا في ماذا؟ يظنه كاذبًا أن له إلهًا غيره، أو كاذبًا أن الله في السماء، على كل حال الذي كان ينكره فرعون أن يكون إله غيره، ولذلك قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾، وكان يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾، ويقول لموسى: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ إذًا هو كان يدعي الألوهية، ويدعي الربوبية، وهل بني له الصرح؟ وهل صعد على ذلك الصرح؟ لا يُعلم، الذي يُعلم أنه قال لهامان: ابن لي الصرح.

مؤمن آل فرعون:

قام رجل مؤمن من آل فرعون، فقال كلمة حق عند سلطان جائر، ولا شك أن فرعون كان جائرًا، قال المؤمن: ﴿يَاقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ * يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَيَاقَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى ٱلنَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّارِ﴾، مقارنةٌ عظيمةٌ وعجيبةٌ، أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار؛ أدعوكم إلى عبادة الله الذي يستحق أن يُعْبَد، وتدعونني لأن أشرك به، وأكفر به، أدعوكم إلى الجنة، وتدعونني إلى النار، ولذلك ختم بقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ متى؟ يوم القيامة ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ﴾، وهكذا يجب على المؤمن أن يدعو إلى الله تبارك وتعالى ويبين ما عنده.

أمّا فرعون فهل كان مصدقًا أنه إله وأنه رب؟ أو كانت مجرّد دعوى، هو ذاته لا يصدقها؟ الصحيح أنها مجرد دعوى، وفي قرارة نفسه لا يؤمن أنه إله، وقد أخبر الله تبارك وتعالى عما يجول في خاطر فرعون، وما يدور في نفسه، فقال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ أي: أنفسهم من الداخل كانوا يعتقدون عقيدة جازمة أن موسى صادق، وأنهم مبطلون، ولكنه العناد والكبر، ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية: جلّ المعاصي وجل الأسباب التي تُدخل الناس النار ترجع إلى العناد والكبر، وفرعون هذا جمع الأمرين: جمع العناد والكبر معًا، ولذلك لما أدركه الغرق ـ كما سيأتينا ـ قال: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، إذًا هو في حقيقة نفسه كان يدرك وجود إلهٍ آخر غير ما يدعي هو من الزور والبطلان.

اجعلوا بيوتكم قبلة:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فأنت يا موسى ومعك أخوك هارون ﴿تَبَوَّءَا﴾ أي: اختارا لقومكما بمصر بيوتًا، اسكنوا في مصر أنتما ومن آمن معكما من بني إسرائيل: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾، استقبلوا القبلة في بيوتكم، ولم يقل لنا هنا ما هذه القبلة، هل هي بيت المقدس؟ أو أن القبلة مكة؟ ما ذكر لنا، ولكن ذكر: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾، لكن يجب أن نعلم أنها كانت صلاة، وفيها ركوع وسجود، ولكن الله أعلم بكيفية هذا الركوع، أو عدد الركعات، أو عدد الركوع، أو عدد السجود.

فرعون يهم بقتل موسى عليه السلام:

تأثر فرعون كثيرًا بالذي حدث، وبالهزيمة التي وقعت عليه، فلم يجد بُدًّا من تهديد موسى -صلوات الله وسلامه عليه-، فقال لمن معه -وكأنه يستشيرهم-: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾، وكأن هناك من يمنعه، فقال: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ هذا الكلام يقول عنه أهل العربية: هذا كلام يُضحك الثكلى، والثكلى هي: المصابة بموت أبيها أو أمها أو زوجها أو ولدها، وهذه لا تضحك؛ لأنها مهمومة ومحزونة، وأحيانًا بعض الكلمات تُضحك الثكلى؛ لغرابتها.

ففرعون يقول: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ لماذا تريد أن تقتله؟ قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾، تصوروا موسى يُظهر في الأرض الفساد، وفرعون مصلح! كما قال فرعون: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

وكذلك مخطئ من ظنّ يومًا أن لفرعون دينًا، وأنه يريد أن يصلح، وأنه يريد أن يهديهم سبيل الرشاد، وهل فرعون كان وحده أم كان معه من يدفعه دفعًا إلى هذه الأمور؟

والجواب: كانت معه بطانة السوء كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ بطانة سوء لرجل سيء، ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾، كيف تقبل أنت يا فرعون هذا؟ وذلك عندما سكت

عن موسى، هؤلاء هم الذين دفعوه إلى قوله: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾.

وبلغ هذا الكلام موسى -صلوات الله وسلامه عليه-، أن فرعون يريد قتله، ويريد قتل من معه ممن آمن، فماذا قال لقومه؟ قال: ﴿ٱسْتَعِينُوا بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوا إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ إذًا بماذا أمرهم موسى؟ أمرهم بالصبر، فالإنسان يصبر على أمر الله تبارك وتعالى وقَدَرِه.

ثم قال لهم موسى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

موسى عليه السلام يدعو على فرعون ومَنْ ناصره:

وبعد أن هدّأ موسى -صلوات الله وسلامه عليه- من روعهم، وطمْأنَهُم؛ التفت إلى ربه يدعوه، فقال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾، دعا عليهم موسى -صلوات الله وسلامه عليه- فقد آذوه، وآذوا المؤمنين، آذوهم قبل ولادة موسى بذبح الأبناء والاستعباد، وآذوهم بعد بعثة موسى -صلوات الله وسلامه عليه- أيضًا بالتقتيل، ولذلك دعا موسى عليه السلام على فرعون، وأمَّن هارون بقوله: آمين، قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، والآن فرعون قرر القتل لموسى -صلوات الله وسلامه عليه-.

هنا يقول مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ﴾ ليس مدعيًا، وإنما جاءكم ببينات، ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ﴾، قال أهل العلم: إن أبا بكر أفضل منه؛ لأنه ما كان يكتم إيمانه، ولكنه كان يظهره، أما مؤمن آل فرعون فهو يكتم إيمانه، ولذلك ابتدأ بقوله: ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا﴾ أنه نبي ومرسل من عند الله؛ ﴿يُصِبْكُمْ بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ يصبكم خير من هذا الرجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ وإن كان موسى مسرفًا على نفسه بدعوى الباطل، وكان كذابًا؛ فإن الله لا يهديه، وأنتم ترون خلاف ذلك، الله هدى موسى ونصره عليكم، وأظهر الآيات التي عنده على السحر الذي عندكم،

فالتفت فرعون إلى الملأ، ثم قال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

المهم أن فرعون لما سمع كلام هذا الرجل وخشي أن يؤثر كلامه في الناس قال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي: في قتل موسى عليه السلام، فردَّ عليه المؤمن، فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ كلام موزون قاله هذا الرجل لقومه، يحذرهم في صنيعهم، ويحذرهم من ضلالهم، وهَدَأ فرعون، وما قتل موسى بعد هذا الحوار وسماعه هذا الكلام.

نزول صنوف من العذاب على آل فرعون:

وعاش موسى عليه السلام في مصر فترة، ولكن فرعون ظلَّ يُقَتِّل أبناءهم ويؤذيهم، فسلط الله تبارك وتعالى على آل فرعون آيات، سلَّط عليهم الجدب، والقحط، ونقص الثمرات لعلهم يرجعون عن غيهم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: من الابتلاءات التي يبتليهم الله بها ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فأغلقوا الباب أمام موسى -صلوات الله وسلامه عليه-، لن نؤمن مهما تأتنا بآية لتسحرنا بها، فهم مصرون على ما هم عليه من الباطل، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ وهذه الابتلاءات، هي:

الطوفان: الماء خرج من النيل، فأغرق مزارعهم وبيوتهم.

الجراد: أرسل عليهم الجراد، فكان يأكل جميع محاصيلهم، ويدخل عليهم في بيوتهم حتى تأذوا منه أذية عظيمة.

القُمَّل: هو النمل الصغير الأصفر، وقيل: هو ما نسميه نحن بالقَمل نوع من الحشرات،

وقيل: غير ذلك، فصار في كل مكان حتى تأذوا منه.

الضفادع: تنام معهم على فرشهم في بيوتهم، فيفتحون القِدر تخرج لهم الضفادع، ويفتحون الدرج والخِزانة يجدون الضفادع.

الدم: يفتحون الماء ينزل لهم الدم، وكان الدم في ثيابهم، وفي فرشهم، وفي مياههم، وفي النهر، كل شيء انقلب إلى دم، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ واحدة تلو الأخرى، وكلما جاءتهم آية ذهبوا إلى موسى: ادعُ الله أن يُذهب هذه ونتوب ونستغفر، فيدعو الله، فتذهب، فيعودون لما كانوا عليه، ثم تأتيهم الثانية، فيذهبون إلى موسى، وهكذا حتى جاءتهم تلك الآيات من الله جميعًا، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ أي: العذاب ﴿قَالُوا يَامُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ أي: واحدة من التي ذكرنا ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ اختلف أهل العلم في تحديدها:

فقال بعضهم: هي سنوات القحط التي أصابتهم، ونقص الأموال، ونقص الأنفس، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، هذه التسع آيات البينات.

موسى عليه السلام يقرر الخروج من مصر:

وظل موسى يدعو إلى الله تبارك وتعالى في مصر إلى أن جاء اليوم الذي قرر فيه موسى أن يخرج من مصر، أو أن فرعون قرَّر أن يقتل موسى، المهم أن موسى خرج بمن معه -صلوات الله وسلامه عليه-، ولحق بهم فرعون يريد قتلهم أو ردهم إلى بلاده، وكانوا قد وصلوا إلى البحر، وفرعون خلفهم، وتفاقم الأمرُ، واشتد الخطب، واقتربَ فرعون وجنوده حتى صار قاب قوسين أو أدنى منه، وزاغتِ الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وظنوا بموسى الظنون، أنت قلت: سننجو وستورثنا الأرض.. الآن سيهلكنا فرعون ومن معه، ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ انتهى الأمر، فقال موسى ذلك الرجل الواثق بربه وبوعده سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أطلقها صلوات الله وسلامه عليه مدوية صكَّتِ الآذان هم يقولون: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾

وموسى الثابت الواثق أمامه البحر وفرعون خلفه ويقول: ﴿كَلَّا﴾، لن يحدث شيء مِنْ هذا، لن تُدركوا، كيف؟! هل سنطير؟! سنختفي؟! تنشق الأرض وتبتلعنا؟! ماذا سنفعل؟ وليس هو الذي يفعل، بل الذي يفعل هو الله سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، فموسى عليه السلام لم ينسَ قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾، ولذلك باطمئنان تام وهو لا يدري كيف سيحدث الأمر؟ لكن يعلم ويدرك علمًا يقينيًا ثابتًا جازمًا أن فرعون لن يصل إليهم ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾.

انفلاق البحر لموسى عليه السلام:

بعد ذلك جاءت البشرى من الله تبارك وتعالى مباشرة ﴿أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ فمن كان يتصور أن يحدث مثل ذلك؟ ما تصوره أحد، يأتي إلى البحر، هذا البحر العظيم، فيقول تعالى: ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ فضرب البحر بعصاه ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ طود مِنْ هاهنا، وطود مِنْ هاهنا، أرض يابسة وسط البحر.

يقول الله تبارك وتعالى في آية أخرى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ أي: موسى ومَنْ كان معه، فما كان معه إلا نفر قليل هم الذين آمنوا بموسى صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: مِنْ بعدهم ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ أي: وقت الشروق وجهة المشرق ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ كان موسى -صلوات الله وسلامه عليه- كما يذكرون هرب إلى ساحل البحر الأحمر، وكان إهلاك فرعون في العاشر من محرم، ولذلك لما وصل النبي ﷺ إلى المدينة وجد اليهود يصومون العاشر مِنْ المحرم،

فقال لهم: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» قالوا: هذا اليوم الذي نجى الله فيه موسى من فرعون، قال: «نحن أحق بموسى منكم» فأمر بصيامه صلوات الله وسلامه عليه[1].

انفلق البحر فلقتين، وبينهما أرض يابسة، وعبر موسى عليه السلام ومَنْ معه، فأتبعه فرعون، فأراد موسى أن يضرب البحر حتى لا يدخل فرعون فيه، فقال الله له: اتركه أنت تريد شيئًا، ونحن نريد شيئًا آخر يا موسى، ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوٗا﴾ اتركه هادئًا لا تضربه، ولا تأته ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًا إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ﴾، فلما تجاوز موسى البحر؛ قال الله عز وجل: الآن اضربه، فلما ضربه كان فرعون وقومه في الوسط، فغرق فرعون ومَنْ معه كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾ الآن رأى فرعون الماء يأتيه من كل صوب، وأدرك أنه سيغرق، فماذا قال؟ ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ يقول: أنا الآن أسلمت، فجاءه الجواب من الله -جل وعلا-: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ﴾؟! الآن تسلم؟ أين أنت قبل قليل؟ أين أنت لما جاءك موسى بالبينات؟ الآن؟ لما رأيت الموت؟ الآن لما أدركك الغرق؟ ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ * فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ فقط لماذا؟ ﴿لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ﴾ لا لأجلك أنت، ولكن لأجل غيرك؛ لأنهم كانوا يقولون عنه: إنه إله، فإذا غرق يقولون: لم يغرق، واختفى فهو إله، وسيأتي بعد ذلك، ولكن الله سبحانه قال: ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ نخرجك جثةً ببدنك حتى يعلم الناس جميعًا أنك لست بإله، ولكنك مجرد عبد، شئتَ أم أبيتَ، ﴿لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ﴾ علامة حتى لا يدعي أحد بعدك الإلٰهية، أنت يا منْ كنتَ تدعي الإلٰهية نخرجك جثة نتنة منتفخة من الماء ليراك الناس وليعرفوا قدرك، وليعرفوا قدرهم عندما يتعاملون مع الله سبحانه وتعالى.

اجعل لنا آلهة:

وتجاوز موسى عليه السلام ومن معه البحر بعد أن خرجوا من مصر ووقعت أحداث كثيرة قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡ﴾ مرّوا على قوم من عبدة الأصنام بعد أن جاوزوا البحر، ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل

[1] أخرجه البخاري (٢٠٠٤)، ومسلم (١١٣٠).

لَنَا إِلٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ هذا أول السيل، وأول السيل قطرة، ولكنها قطرة قبيحة، ﴿آجْعَلْ لَنَا إِلٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ أو ليس لكم إله؟! أليس إلٰهكم الله -جل وعلا- الذي نجاكم الآن من فرعون، ﴿آجْعَلْ لَنَا إِلٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ يعني: عبدة الأصنام الذين مررتم عليهم ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَالَ أَغَيْرَ آللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى آلْعَالَمِينَ﴾ وهذه هي أول قضية.

إذًا أول قضية قالها بنو إسرائيل لموسى: ﴿آجْعَلْ لَنَا إِلٰهًا﴾ متى؟ بعد نجاتهم من فرعون مباشرة قبل استقرارهم، وعنَّفهم موسى عليه السلام، فسكتوا، ولكن ما في قلوبهم إلى الآن يرتج عليهم كما يرتج المرجل.

ميعاد موسى عليه السلام مع ربه:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، ذهب موسى ليبتعد عن بني إسرائيل ليناجي ربه جل علا، وكان قد صام ثلاثين يومًا ثم بعد ذلك أفطر حتى تذهب رائحة الفم مما يخرج من المعدة بسبب طول الصيام، فلما جاء لميقات ربه تبارك وتعالى، قال الله له: لماذا أفطرت يا موسى؟ قال: حتى تتغير رائحة فمي، قال: أو ما علمت أن رائحة فم الصائم أفضل عندي من ريح المسك؟ ارجع صم عشرة أيام ثم تعال، فرجع موسى وصام عشرة أيام، وهي مصداق قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، ولما أراد أن يخرج ترك أخاه هارون عليه السلام في بني إسرائيل، وقال له: ﴿آخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾، وذلك أن موسى عليه السلام هو صاحب الرسالة، وأما هارون عليه السلام فهو تابع له، وإن كان نبيًا كريمًا مع موسى صلوات الله وسلامه عليه، ولكن موسى هو الأصل، وهو من أولي العزم من الرسل، ﴿آخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ آلْمُفْسِدِينَ﴾ وهذا ليس بعيب أن يقول الرجل لرجل صالح: «أصلح»، كما قال الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿آتَّقِ آللَّهَ﴾، وليس في هذا منقصة لهارون لأن ﴿آلذِّكْرَى تَنْفَعُ آلْمُؤْمِنِينَ﴾.

مجيء موسى عليه السلام لميقات ربه سبحانه:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ يقول أهل العلم: لما سمع لذة الخطاب اشتاق إلى رفع الحجاب؛ أي: لما سمع كلام الله اشتاقت نفسه لرؤيته -جل وعلا-، وذلك أن أعظم نعيم يُعطاه المؤمنون في الجنة رؤية الله تبارك وتعالى، فموسى اشتاق إلى رؤية الله، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾ لا تستطيع أن تراني، وذلك أن الله تبارك وتعالى أعطاه قوة بقدر، وهذه القوة لا يستطيع من خلالها أن يتحمل رؤية الله جل وعلا وذلك أن الله جل وعلا كما أخبر عنه نبيه ﷺ: «حجابه النور، لو كشفه لأحرقتْ سبحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره»[1].

فالله عز وجل رحمةً بموسى قال: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ أنا منعتك رحمة بك، قال الله جل وعلا: ﴿وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾، جبل من حجارة يصير دكًا لماذا؟! لأن الله جل وعلا تجلى له، لم يتحمل، فكيف بك أنت أيها الإنسان الضعيف كيف تتحمل ذلك؟

قال تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ سجد لله عز وجل، وقيل: أُغمي عليه، صُعِق لما رأى الجبل اندك بهذه السرعة، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ مِنْ أني سألتك هذا في هذه الدنيا.

رجوع موسى عليه السلام إلى قومه:

خرج موسى إلى ميقات ربه ثم رجع بعدها إلى قومه فماذا رأى؟ يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ * ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا

---

١ أخرجه مسلم (١٧٩).

يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ * وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، وقال الله -جل وعلا-: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ * قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ * فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي * قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ * أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

وقال الله جل وعلا: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾.

وقال الله جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ * قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي * قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي * قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾.

فهذه الآيات ذُكرت في قصة موسى مع قومه وعبادتهم للعجل، وهذا من فساد رأيهم، وعطب فكرهم.

عبادة العجل:

خرج موسى لميقات ربه وترك هارون عند قومه، فماذا فعلوا؟ جاءهم السامري، وهو رجل ليس من بني إسرائيل، وإنما التحق بهم، والذي حصل أنهم لما هربوا من فرعون كان

بعض الناس قد سرق ذهبًا من الأقباط؛ لأنهم قالوا: طالما سنخرج نسرق ذهبًا فسرقوه، ثم لما تجاوز موسى وقومه البحر، وإذا هذا الذهب معهم، وهو معنى قولهم لموسى: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ هو الذهب الذي سرقوه، وقد أمرهم موسى عليه السلام بإلقائه في اليم؛ لأنه لا يحل لهم، وقال: كيف تستحلونه؟ فألقوا الذهب، فقام السامري، وجمع الذهب كله، وهذا يدل على أن الذهب كان كثيرًا، فصهره ثم صنع منه عجلًا، وهذا العجل صنعه بطريقة بحيث يدخل الهواء من دبره، فيخرج صوت من فم هذا العجل، فتعجبوا، وقالوا: ما هذا؟ عجيب هذا العجل! فقال لهم السامري: هذا إلٰه موسى الذي ذهب ليلتقي به، وقال: هذا إلٰه موسى خاصة أن موسى قال لهم: ثلاثون يومًا أذهب وآتي، فتأخر موسى عشرة أيام، وبعد أن تجاوز موسى الثلاثين أخرج السامري العجل، فقالوا ما هذا العجل؟ قال: ضاع موسى نسي إلٰهه، وسيأتي موسى ويقول لكم: هذا إلٰهي. قال هارون اتقوا الله ليس هذا إلٰه موسى، هذا عجل، هذا صنم، فلم يلتفتوا إلى هارون، ولذلك قال: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾، فما كانوا يخافون من هارون؛ لأنه هين لَيِّن، ويخافون من موسى كثيرًا؛ لأنه كان شديدًا عليهم، واستمروا على عبادة ذلك العجل عشرة أيام، والله -جل وعلا- قال لموسى: إن قومك اتخذوا العجل من بعدك، والآن ارجع إليهم تجدهم يعبدون العجل ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾، فرجع موسى إلى قومه غاضبًا ﴿غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ والأسف هو أشدُّ الغضب يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا ٱنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ وآسفونا أغضبونا، ولما دخل عليهم؛ وجدهم يعبدون العجل، فألقى الألواح التي فيها كلام الله، ولكن بدون شعور، وذلك مما رآه من فعل بني إسرائيل مع العجل، فالتفت فوجد هارون مع القوم، والعجل يُعبد، فقال: أين أنت يا هارون من هذا؟ ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ من الغضب كيف عُبِدَ العجل؟ ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ﴾ يا أخي ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَاءَ﴾، وقال: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾، خشيت أن تقول لِمَ لَمْ تنتظرني؟ فانتظرتك حتى تأتي، فعذر أخاه، وذهب إلى قومه، فقال لهم: لماذا عبدتم العجل؟ أعجلتم العذاب؟ أتريدون أن يُنزل الله عليكم العذاب؟ ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا

حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي * قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ نحن ألقينا الزينة التي سرقناها كما أُمرنا، ثم بعد ذلك وجدنا هذا العجل، وقالوا: إنك نسيت ربك، وهذا ربك تركته، فعبدناه على هذا الأساس، والسامري هو الذي صنع لنا هذا العجل.

ولننظر كيف كانوا مع هارون فقد استضعفوه وكادوا أن يقتلوه، والآن مع موسى هم يخافونه، وقالوا: إنه السامري، فجاء بالسامري فقال: ما أمرك؟ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أي: رأيت أشياء ما رآها الناس، وما هذه الأشياء؟ قال أهل العلم: كان جبريل على فرس لما أغرق الله عز وجل فرعونَ وقومَه في البحر، وموسى عليه السلام لما جاء ليضرب بعصاه في البحر بعد أن عبروا قال له جبريل: دعهم يتقدمون لهم شأن آخر، فلما نجى الله عز وجل موسى ومن معه، وكان معهم جبريل، وهنا السامري انتبه أن هذا ليس إنسانًا عاديًا رغم أن جبريل كان بصورة بشر، فقال: هذا يأمر موسى ويطيعه موسى مَنْ هذا؟ فلما وضعت فرس جبريل حافرها على الأرض جاء وأخذ أثرًا من هذا المكان وجعله في العجل فظهر له الصوت، ولذلك قال: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ وهو جبريل وفرسه ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ وهو جبريل وأثر قدم فرسه ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي: في جسد العجل؛ فكان الصوت ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾.

فعرف الآن موسى عليه السلام قصة العجل، إذًا هذا الصوت الذي يخرج من العجل بسبب ما أخذه من أثر فرس جبريل عليه السلام، فقال له موسى: أنت الآن لك عقوبة خاصة ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ سيكون لك موعد وعذاب عند الله جل وعلا، وهذا العجل الذي تزعم أنه إله سأحرقه حتى يعلم الجميع أنه ليس بإله ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾، ثم أحرق العجل، ثم نسفه في اليم -صلوات الله وسلامه عليه-، وانتهى أمر العجل، وتابوا، ورجعوا، وكما أن المعوج لا يستقيم؛ كذلك هؤلاء القوم فيهم اعوجاج شديد.

بنو إسرائيل يُؤْمَرون بقتل أنفسهم:

قالوا تبنا يا موسى قال: ﴿فَٱقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ هذه التوبة عند الله تبارك وتعالى، فجاءتهم ظلمة، فصار بعضهم يقتل بعضًا، حتى قيل: إنه قُتِلَ منهم قريب من سبعين ألفًا، ورفعت

الظلمة، وقالوا: يا موسى هل تاب الله علينا؟ قال تاب الله عليكم، ولكن الآن سأختار منكم جماعة: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا﴾، أخذ موسى سبعين رجلًا مِنْ خيرة بني إسرائيل، وذهب بهم وقال: انتظروا هنا حتى أناجي ربي، قالوا: أسمعنا كلام ربك، لابد أن نسمع معك، فقال: تعالوا معي، فاقترب موسى، ثم كلم الله موسى، فسمعوا الكلام، فقالوا: يا موسى مَنْ هذا الذي كلمك؟ قال: ربي، قالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ وهؤلاء أحسن الناس في بني إسرائيل، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾، فلما رأى موسى السبعين هلكوا، وهم أحسن الناس في بني إسرائيل؛ قال: يا رب ماذا أقول عندما أرجع لبني إسرائيل؟ أقول لهم: إن الله أهلك السبعين؟ اللهم أحيهم واقبل توبتهم، وبدأ يدعو الله تبارك وتعالى ويستجير به سبحانه وتعالى، فاستجاب الله لموسى وأحياهم ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، فأحياهم الله تبارك وتعالى مرة ثانية.

بنو إسرائيل والتيه:

التيه فترة من الزمن أخبر الله تبارك وتعالى بها عن بني إسرائيل، وذلك لما أمرهم موسى أن يدخلوا بيت المقدس، فرفضوا ذلك، وقالوا له: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ ضرب الله عليهم التيه يمشون لا يدرون أين هم لمدة أربعين سنة، فجاعوا، فرزقهم الله المنَّ والسّلْوى.

والمنُّ: حبات بيضاء من السماء يأكلها الشخص، فيجد فيها لذة.

والسّلْوى: العسل، وقيل: السلوى هو: بعض الطيور كالسمان بدون تعب وهم جلوس يأتيهم المنّ والسّلْوى، فماذا قالوا: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ مَللنا من المنّ والسّلْوى، إذًا ماذا تريدون؟ ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ هم عندهم المنّ والسَّلْوى ويريدون البصل، والبقل، والعدس، والثوم، والقثاء، فقال موسى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ وليس مصرَ الدولة المعروفة وإنما مصر من الأمصار يعني: هذه الأطعمة التي تريدون موجودة في كل مكان، ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ وهذا لتعَنُّتِهم وعنادِهم، وكذلك لما صنعوا بموسى، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا

فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، فهذه أمة غريبة للغاية، الآن جاءهم، وقال: خذوا التوراة. قالوا: لا نأخذ التوراة، فنتق الله عليهم الجبل -أي رفعه-، وصار معلقًا في الهواء. قالوا: سمعنا وعصينا! قال: أُنزل عليكم الجبل؟ قالوا: الآن سمعنا وأطعنا.

قصة البقرة:

ثم حدث في بني إسرائيل أن وجدوا قتيلًا، ولم يدروا من الذي قتله، فأمسكوا بشخصٍ ظنوه هو القاتل، فقال قائل منهم: هل تعرفون أن هذا هو القاتل لتتهموه؟ عندكم موسى اذهبوا إليه هو نبي وسيعلم، وهنا إما أنهم سألوا موسى على سبيل الصدق أو أنهم سألوه على سبيل الاستهزاء والسخرية؟ فجاؤوا إلى موسى، وقالوا: يا موسى قُتِلَ لنا قتيل فمن الذي قتله؟ وموسى لا يعلم الغيب صلوات الله وسلامه عليه، فالذي يعلم الغيب هو الله سبحانه وتعالى قالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ يخبرنا مَن الذي قتل قتيلنا؟ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ قالوا: نقول لك قتل قتيلنا، وتقول اذبحوا بقرة! ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أتسخر منا؟

فقال: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ﴾ قال: أرأيتم مني هذا؛ كم سنة عشتُ معكم، فهل مرة سخرت منكم؟ هل وقع مني هذا لكم من قبل؟ فقال لهم: اذبحوا بقرة، ولماذا بقرة؟ لماذا لم يكن حملًا أو شاة أو أسدًا أو نمرًا لماذا بقرة؟ لأنهم عبدوا العجل، فحتى يخرج حب العجل من قلوبهم.

قال الله تبارك وتعالى حكاية عنهم: ﴿قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ لا هي كبيرة، ولا صغيرة، فهي وسط ﴿فَٱفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّاظِرِينَ * قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ قالوها: زِدْنا مِنْ صفاتها، هذا لا يكفي، فقال: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا ٱلْآنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾، الآن نبحث عنها.

قال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فلو ذبحوا أي بقرة لكانوا قد نفذوا الأمر،

ولكنهم تعَنّتوا، أي بقرة تُذبح؟ قال لهم: لا فارض، ولا بكر، شدّدوا على أنفسهم وتعنتوا، فقالوا: ما لونها؟ قال: صفراء، ولكن فاقع لونها تسر الناظرين، فوجدوا مجموعة قليلة من الأبقار تنطبق عليها هذه الصفات، فقالوا بعد ذلك: أخبرنا أيضًا عن صفات هذه البقرة، قال: ﴿لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ ليست مذللة، ولا تحرث الأرض، فهي بقرة مذللة، ﴿وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ لا تعمل بسقي الزرع.

وقيل ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾: لا عيب فيها ﴿قَالُوا ٱلْآنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ وجدوا الأوصاف التي يبحثون عنها، ولأنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عز وجل عليهم، فقال صاحبها بعد أن زاد فيها أكثر من مرة: لا أبيعها حتى آخذ وزنها من الذهب، فجمعوا ذهبهم كله، ووزنوها له وأعطوه، فلما أعطاهم البقرة؛ أخذها موسى -صلوات الله وسلامه عليه- فذبحها، ثم أخذ جزء من البقرة، والله أعلم ما هو؟ قيل الذراع، وقيل الفخذ، المهم أنه أخذه، وضرب به الميت، فقام حيًا بقدرة الله عز وجل، وقال موسى: الآن هو الذي يخبركم مَنْ الذي قتله؟ فقام المقتول بين أظهرهم، وقال قتلني فلان، فأخبر بقاتله ثم مات.

اذهب أنت وربك فقاتلا!

أمر الله تبارك وتعالى موسى أن يقول: ﴿ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ على الأرض بعد أن كانوا مستعبدين مضطهدين صاروا ملوكًا، ﴿وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ ٱلْعَالَمِينَ﴾، ثم بعد كل هذا أمرهم بأمر، فقال: ﴿يَاقَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾، وهي بيت المقدس، وكانوا قد طردوا منها، فأمرهم أن يدخلوها، وهذا الجهاد هو جهاد الدفع -يعني دفع الكفار عن أرضهم-، وأما جهاد الطلب؛ فلا يكون إلا في أمة محمد ﷺ.

فالجهاد نوعان: جهاد دفع، وجهاد طلب.

وجهاد الدفع عند كل الأمم تدافع عن نفسها، وأما جهاد الطلب. وهو نشر الدعوة. فلم يكن إلا في أمة محمد ﷺ، ولذلك كان كل نبي يُبعث إلى قومه خاصة والنبي ﷺ هو الذي بُعِثَ إلى الناس كافة، يجاهد ويخرج من بلاده إلى بلاد أخرى حتى ينشر الله الإسلام على الأرض كلها.

فهنا أمرهم أن يدخلوا الأرض المقدسة ﴿ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَامُوسَى﴾، ولم يقولوا: يا نبي الله، ولم يقولوا: يا رسول الله، وإنما نادوه باسمه، وهذا سوء أدب منهم مع موسى صلوات الله وسلامه عليه ﴿قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾، ثم قال الله تبارك وتعالى مبينًا أنه ما يزال فيهم صالحون ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ فقط، حتى إنه قال البعض: هذان الرجلان أحدهما: نبي، وهو: يوشع بن نون، والثاني: رجل صالح، وبعضهم قال: إنهما هارون ويوشع عليهما السلام، ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ أي: يخافون الله تبارك وتعالى ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ أنعم الله عليهما أن وفقهما لهذه المقولة ﴿ٱدْخُلُوا عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾، وكأن قوم موسى ما سمعوا شيئًا، فقالوا ثانية: ﴿يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾ تكلم هذان أو لم يتكلما ﴿لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾، ويا ليتهم سكتوا، لكنهم زادوا، فقالوا كلمة الكفر: ﴿فَٱذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، فبعد كل هذا الذي رأوه من موسى، ومن الله سبحانه وتعالى؛ يقولون: ﴿فَٱذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ فماذا تركوا لفرعون؟ وماذا تركوا للنمرود؟ وماذا تركوا لقارون؟ وماذا تركوا لهامان؟ هكذا يقولون لنبي الله موسى -صلوات الله وسلامه عليه-، وانظروا إلى قولهم: ﴿أَنْتَ وَرَبُّكَ﴾، ولم يقولوا: أنت وربنا، وكأنه ليس برب لهم والعياذ بالله.

وهنا غضب موسى -صلوات الله وسلامه عليه-، فقال يعتذر إلى الله من فعل قومه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ فقط، فماذا أصنع بهم يا رب؟ ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَاسِقِينَ﴾، فسماهم فاسقين، والفاسق هو الخارج عن الشيء، وهم خارجون عن الطاعة، عن طاعة موسى عليه السلام، فجاء الجواب من الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: هذه الأرض المقدسة محرمةٌ عليهم، فالذين يقولون هذا الكفر لن يدخلوها أبدًا، ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

قال بعض أهل العلم: ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، فيجعلون التيه أربعين سنة، ثم يدخلون الأرض المقدسة، فتكون العقوبة محددة بأربعين سنة، أو تكون ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ ويقف، فتكون محرمة عليهم إلى الأبد: وزيادة على ذلك ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَاسِقِينَ﴾ لا تأسَ عليهم أبدًا؛ لأنهم يستحقون

ما سيصيبهم، وهؤلاء الذين قال الله فيهم سبحانه وتعالى: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾، فهؤلاء خير أتباع الرسل في ذلك الزمان، ولكم أن تتصوروا كيف كان يُصنع بالرسل غير موسى -صلوات الله وسلامه عليه-.

موسى يضرب بعصاه الحجر:

قال الله تبارك وتعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ ٱسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ ٱضْرِبْ بِعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنْبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾، وقال الله جل وعلا: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَامَ﴾، إذًا سقاهم الماء العذب بمعجزة، ثمّ ظلل عليهم الغمام، وهذا في التيه، في الأربعين سنة التي كانوا فيها تائهين، يقول: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَامَ﴾ حتى صارت الصحراء ليست صحراء، بل مظللة بالغمام، لا تأتيهم الشمس ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَى﴾، وهم في الصحراء لا يحتاجون الصيد، والماء موجود، وكذلك المنّ والسلوى، فماذا يريدون أكثر من ذلك؟! في الحضر قد لا تجد هذا الشيء فكيف في الصحراء؟! كل شيء موجود ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، بعد أن أكلوا قالوا أين الشراب؟ فانبجستْ مِنَ الأرض اثنتا عشرة عينًا، وبعد أن طعموا قالوا: أين الظل؟ فظلل الله عليهم بالغمام، وهكذا ظلُّوا في التيه طوال هذه الفترة، ثمّ بعد ذلك قال لهم يوشع بن نون عليه السلام: ﴿ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾، وذلك أن هارون عليه السلام قد مات في التيه، وكذلك موسى عليه السلام مات في التيه، وخَلَفَ هارونُ وموسى نبيًا آخر، وهو يوشع بن نون عليه السلام، وقد استطاع أن يقنعهم أن يدخلوا الأرض المقدسة، وقد ملّوا أربعين سنة، حتى يقال: إن الجيل كله مات، وهذا على القراءة التي قلنا فيها بالوقف على ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: لن يدخلوها أبدَ الآبدين، ثمّ جاء جيل آخر، وهو الذي دخل بيت المقدس مع يوشع بن نون.

وإذا قلنا: ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ فبقية منهم والجيل الذي بعدهم، ولكن الأشهر أن جميع ذلك الجيل قد ماتوا، وخرج جيل جديد، لكن الجيل الجديد هذا جيل من بني إسرائيل، فمن شابه أباه فما ظلم، وهذا الجيل الجديد مع يوشع بن نون نبي الله، يقول لهم الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا هَذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾، وهي بيت المقدس ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

استجابتهم ليوشع بن نون عليه السلام:

جاؤوا ليوشع عليه السلام، فقالوا: ندخل فقد مللنا من الصحراء، نريد الرجوع إلى بلادنا وأهلينا، قال: ﴿ٱدۡخُلُوا ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾ لابد أن تجاهدوا، فقاتلوا مع يوشع -عليه السلام-، ودخلوا الأرض المقدسة، فماذا قال الله جلّ وعلا لهم: ﴿وَٱدۡخُلُوا ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ شُكرًا لله تبارك وتعالى ﴿وَقُولُوا حِطَّةٞ﴾ أي: اللهم حُطَّ عنا ذنوبنا، واغفر لنا ما مضى، فماذا فعلوا؟ دخلوا الأرض المقدسة يزحفون على مقاعدهم عنادًا، كما قال النبي ﷺ: «فدخلوا يزحفون على إستاهم»[1]. الله عز وجل يقول: اسجدوا، وهم يزحفون على مقاعدهم عنادًا لأنبياء الله جلّ وعلا، والله يقول لهم: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٞ﴾ أي: يا رب حُطَّ عنا ذنوبنا، فقالوا: حنطة حبةٌ في شعرة[2]، ودخلوا الأرض، ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفۡسُقُونَ﴾.

قصة قارون:

وكان في قوم موسى عليه السلام رجل ذَكر الله قصته، يقال له: قارون.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ ذكر أهل الكتاب أن قارون كان ابن خالة موسى أو ابن عمته، وكان قارون هذا قد آتاه الله من الأموال الشيء العظيم، وكانت عنده كنوز، مفاتيحها يصعب على الرجال الأقوياء حملُها، وكان موسى -عليه السلام- يعظه، ويذكره بالله دائمًا كلما رآه، ويذكره بالدِّين وترك الفجور والكفر والعصيان، وهو معاند إلى أن ملّ مِنْ دعوة موسى -عليه السلام- له، وقد ذكر الله عز وجل قصته، وقصة الكنوز التي أعطاها الله له، فقال: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ * وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ ما آتاني الله شيئًا، إنما أخذته على علم عندي.

---

١ أخرجه البخاري (٣٤٣)، ومسلم (٣٠١٥).

٢ التخريج السابق.

قال الله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ﴾ وهذا فضل العلم ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ٱلصَّابِرُونَ﴾ فكانت النتيجة: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾، وهو كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ فانتهى الأمر.

قال الله جل وعلا: ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾، فلا أحد ينصره، ولا هو يستطيع نصر نفسه ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾؛ لأنهم تمنَّوا مكانه وتمنوا أن يكونوا قد خرجوا في زينته كما يخرج، فلما رأوا ما صنع الله به خافوا وأذعنوا لله عز وجل.

موسى والخضر عليهما السلام:

روى البخاري ومسلم[1] عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: حدّثنا أُبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أن موسى عليه السلام قام خطيبًا في بني إسرائيل، خطبة ذرفت منها العيون، وخشعت منها القلوب، فقام رجل من بني إسرائيل، فلحق بموسى، ثمّ سأله، فقال: أي الناس أعلم؟

فقال موسى: أنا.

يقول النبي محمد ﷺ: «فعتب الله عليه، إذ لم يَرُدَّ العلم إليه»، وهذا عتاب من الله تعالى لموسى، كأن الله يقول له: هلا قلت: الله أعلم، أو قلت: أنا والعلم عند الله، لماذا تجزم بقولك: أنا، والناس يتعلمون منك، وأنت نبي كريم؟ بل عَلِّم الناس أن ينسبوا العلم دائمًا إلى الله سبحانه وتعالى، فعتب الله عليه في هذه الكلمة.

---

١ أخرجه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠).

فقال الله له: «بلى لي عبد في مجمع البحرين هو أعلم منك، فما كان من نبي الله موسى إلّا أن قال: أي ربِّ ومن لي به»، وهذا يدلّ على أن موسى كان متواضعًا صلوات الله وسلامه عليه، وإنما قال: أنا ليس من باب الاستعلاء على الناس، وإنما أخبر بما يعلم، وإنما عتب الله عليه أنه لم يقل: الله أعلم.

فقال الله له: «تأخذ حوتًا فتجعله في مكتل وحيثما فقدت الحوت فهو ثَمَّ»، والحوت هو السمكة، وكل ما يعيش في البحر يقال: له حوت، ومنه قول النبي ﷺ عن طالب العلم: «إنه يستغفر له كل شيء، حتى الحيتان في البحر»[1] أي: الأسماك التي تعيش في البحر، وليس الحوت المعروف الذي هو أكبر الأسماك، والمِكتل هو: الزِمبيل، وجاء في بعض الأحاديث أنه حوت مُمَلَّح، وفيها أنه حوت ميت، وفيها أن الله قال: متى ما بَعَثْتُ الروح في هذا الحوت تجدُ صاحبك، إذًا أخذ حوتًا ميتًا مملحًا حتى لا يتعفن، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾، وذلك أنه أُخبر أنه سيجده عند مجمع البحرين ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾، يعني: دهورًا؛ أي: أستمر حتى أجد هذا الإنسان.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾.

قال النبي ﷺ: «ثمّ انطلق هو وفتاه يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة؛ وضعا رؤوسهما، فناما فاضطرب الحوت، فسقط في البحر ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾، فأمسك الله عن الحوت جرية الماء» أي: أمسك عنه جريان الماء، فوقف مثل الطاق «الخشبة»، يراه فتى موسى، «فانطلقا يمشيان بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد ﴿قَالَ لِفَتَاهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾»، فتى موسى رأى الحوت، وهو يخرج وموسى ما رآه، فقد كان نائمًا، لكن فتى موسى عليه السلام نسي أن يقول له: إني فقدتُ الحوتَ في ذلك المكان، فاستمرا في المشي، وليس الغداء هو الحوت، وفتاه عندما ذهب إلى الزِمبيل تذكر أن الحوت قد ذهب من الأمس، وأنه نسي أن يقول لموسى صلوات الله وسلامه عليه.

قال النبي ﷺ: «ولم يجد موسى النصب حتى جاوزا حيث أمرهما الله»، فالله سبحانه وتعالى يُسَهِّل الطريق طالما أننا نريد الخير، فموسى يريد الخير، يريد طلب العلم.

---

١ أخرجه أبو داود في (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وهو في "صحيح الجامع" (٦٢٩٧).

قال له فتاه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ عندما نمنا عند الصخرة، ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ يعني خرج الحوت، ونسيتُ أن أخبرك، ثمّ اعتذر لنبي الله موسى -صلوات الله وسلامه عليه-، فقال: ﴿وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ يعني: أمره عجيب، ولماذا؟ لأنه:

أولًا: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾، يعني: سلك في الماء لكن لماذا؛ لأنه كان ميتًا، والميت لا يتحرك، ولكن نفخ الله فيه الروح.

ثانيًا: وقف في الماء، وكأنه طاق لم يتحرك، فقد أوقف الله الماء حتى رأيته بأم عيني، وهذا أيضًا عجب يقول: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾.

قال النبي ﷺ: «فكان للحوت سربًا ولهما عجبًا».

قال: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ أي: رجعا يقصان آثارهما ليعرفا مِنْ أين مشيا حتى يصلا إلى المكان الذي ناما عنده، والصخرة التي فقدا عندها الحوت، حتى انتهيا إلى الصخرة، ووصلا إلى المكان بعد مسيرة يوم وليلة، فإذا رجل مُسجى بثوب، فسلم موسى قال: «السلام عليكم»، فرد عليه، وقال: «وأنى بأرضك السلام» أي: ما سمعتُ السلام في هذه الأرض، فقال له نبي الله موسى: «أنا موسى قال: نبي بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتُك لتعلّمَني مما عُلِّمْتَ رُشْدًا. قال: يا موسى إني على علم علمنيه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله علمك الله لا أعلمه»، فكل واحد منهما تميز بعلم لا يعلمه الآخر، وهذا الرجل اسمه الخضر، فقال له موسى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، فقدم له العذر، ثمّ قال له: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾، الأمور ستكون صعبة، وأنا أعذرك لو لم تصبر، فقال:﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

بداية مواقف موسى مع الخضر:

انطلقا -موسى والخضر- يمشيان على ساحل البحر، فمرت بهما سفينة، فقال أهل السفينة لموسى والخَضِر: تركبان معنا نوصلكما للضفة الأخرى؟ قالا: نعم، فعرفوا

الخضر، وهو رجل صالح عندهم، وقيل أنّه نبي مِنْ أنبياء الله، «فعرفوا الخضر فحملوه بغير نَولٍ، فلما ركبا في السفينة؛ جاء عصفور فوقع على طرف السفينة، فنقر في البحر نقرة أو نقرتين، فقال الخضر لموسى: يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلّا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره مِن البحر»، فسبحانه لا إله إلّا هو العليم، ولذلك الله عز وجل لما يذكر نفسه في كتابه يقول: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، بل علم موسى وعلم الخضر عليهما السلام إنما هو من العليم الخبير كما قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾.

قال ﷺ: «فلم يفجأ موسى إلّا وأن خلع لوحًا بالقَدُوم -أي بالفأس-، فاستغرب موسى وقال له: ما هذا الذي تصنع؟ قوم حملونا بغير نَولٍ فعمدت إلى السفينة فخرقتها ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾» والإمر: الشيء العظيم، والشيء السيء.

فقال له الخضر عليه السلام: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ فسكت الخضر، قال النبي ﷺ: «فكانت الأولى من موسى نسيانًا، فلما خرجا من البحر مرًّا بغلام يلعب مع الصبيان، فأخذ الخضر برأسه، فقلعه» أي: خلعه، فقال له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ والنُّكر: هو الشيء العظيم، وهو أعظم من الأول، فهنا عدم صبر موسى ليس نسيانًا، لم ينسَ؛ لأن قتل الغلام لا يمكن أن يسْكت عنه، فقال له الخضر: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، فأنا أنذرتُك من البداية أنك لن تستطع معي صبرًا، فسكت موسى، وقال: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾، فاستحيى موسى أن يقول له: سامحني، فوضع حدًا، وقال: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾.

قال النبي ﷺ: «كانت الأولى من موسى نسيانًا والوسطى شرطًا وقع منه».

قال: ﴿فَٱنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾» قرية لؤم كما قال ابن عباس: أهلها لئام ما يضيفون الضيف، ولذلك قالوا: «أشرُّ القُرى التي تبخل بالقِرى» يعني: بالضيافة، فالضيافة في الإسلام واجبة، يجب أن يكرم الضيف يومه وليلته، وثلاثة أيام مستحبة.

والظاهر أنها كذلك في شريعة موسى عليه السلام، ولذلك عابهم موسى عليه السلام.

قال: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ مائلًا يريد أن يسقط، فأشار إليه بيده، ومسح عليه، فاعتدل الجدار، فقال موسى -صلوات الله وسلامه عليه- للخضر عليه السلام: «قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا وعمدت إلى حائطهم فأصلحته ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾»، فقال له الخضر عليه السلام: هذا يكفي ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾، فالأولى نسيانًا، والثانية وضعت شرطًا، والثالثة عمدًا.

قال الخضر لموسى: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾، وقال النبي ﷺ: «وددنا أن موسى كان صبر فقص الله علينا من خبرهما».

قال الخضر: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾، والمسكين أحسن حالًا من الفقير:

فالفقير: هو الذي لا يملك شيئًا كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾، فلا دار، ولا مال.

والمسكين: فهو الذي يملك شيئًا، ولا يكفيه، ولهذا هؤلاء يملكون سفينة، وسماهم الله مساكين، ومنه قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾، فقدم الفقراء على المساكين؛ لأنهم أحوج من المساكين.

قال: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ﴾، ﴿وَرَاءَهُمْ﴾ هنا يقول ابن عباس: بمعنى أمامهم، فكان هناك ظالم إذا مرّت عليه سفينة صادرها، فأراد الخضر عليه السلام أن يعيب هذه السفينة ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ بحيث إذا رآها الشُرط، وهم جنود الملك لا تعجبهم، فيتركونها لهم، فلأن يتركوا لهم السفينة معيبة أفضل مِنْ أن يأخذوها كلها، والمقصود بكل سفينة: أي كل سفينة صالحة يغصبها منهم الملك.

وأما الغلام: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ وهذا الغلام الظاهر من قول الله تبارك وتعالى أنه دون سن التكليف، ولذلك سماه: غلامًا، والغلام هو: الوليد الصغير، والبنت يقال لها: جارية، هذا الغلام أبواه كانا مؤمنين، فخشي الخضر عليه السلام أن يرهقهما؛ لأنه إذا كَبُر

كما علم الله عز وجل أنه سيكفر، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فأمر الخضر عليه السلام أن يقتله صغيرًا رحمةً بوالديه؛ لأنه سيرهقهما طغيانًا وكفرًا، وقد يكفران بسببه، لحبهما له، فيطيعانه في كل شيء حتى لو طلب منهما أن يَكْفُرا لكَفَرا.

والجدار: قال: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾، فإن القرية أهلها لئام، ولكن لابد أن فيها بعض الصالحين، وهذا الصالح الذي فيها مات منذ زمن بعيد، قالوا: هو الجد السابع، وقيل: العاشر، فالله عز وجل يحفظ الابن بجده العاشر، وهذا من رحمة الله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾.

وماذا سيحدث إذا سقط الجدار؟ إذا سقط الجدار سيخرج الكنز، ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ فإذا وجدوا كنزًا لغلامين صغيرين؛ فقد يأخذون المال كله، خاصة وهم أشرار، فالأفضل أن نصلح الجدار حتى يكبر الغلامان، وبعد ذلك يسقط الجدار بأمر الله سبحانه وتعالى ويخرج الكنز، وفي ذلك الوقت لن يستطيع أحد أن يتعدى عليهما.

وهذه أمور لو تأملها الإنسان -حقيقة- فإنه يعذر موسى عليه السلام، فهي أمور لا يستطيع أحد أن يصبر عليها، إلّا أنها من أمور الغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، ولهذا الخضر عليه السلام منذ البداية قال: لن تسطيع ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾.

أدب الخضر عليه السلام مع الله عز وجل:

وهنا وقفة عند قول الله -تبارك وتعالى- عن الغلام:

قال الخضر: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾.

أردنا: أدخل نفسه في الخطاب، وأما عند الجدار فماذا قال؟ قال: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ فهنا قال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ وهناك قال: ﴿فَأَرَدْنَا﴾ فما الفرق؟

قالوا: هذا من حسن الأدب مع الله عز وجل مع أن كلا الأمرين مِنْ الله عز وجل، فالله هو الذي أمره أن يقتل الغلام، والله هو الذي أمره أن يقيم الجدار، لكن الخضر عليه السلام

عالم بالله ونبي كريم لم ينسب قتل الغلام لله عز وجل؛ لأنه في الظاهر عمل سيء، فما أراد أن ينسب السيء إلى الله تبارك وتعالى بينما بناء الجدار ظاهره عمل حسن، ولذلك موسى عليه السلام أنكر عليه أنه فعله بدون مقابل، فالشيء الذي ظاهره خير نسبه إلى الله وحده سبحانه وتعالى والشيء الذي ظاهره سيء نسبه إلى نفسه أدبًا مع الله سبحانه وتعالى.

ومن ذلك ما ورد عن الجن قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ مع أن المريد واحد وهو الله سبحانه وتعالى، فالأمر كله بيد الله عز وجل، ولكن من أدب الجن مع الله سبحانه وتعالى أنهم نسبوا الرشد لله عز وجل، ولم ينسبوا الشرَّ إليه سبحانه، ونقول في دعائنا: «والخير كله في يديك والشر ليس إليك»[1]، مع أنه في يديه، لكنه ليس إليه.. لماذا؟ أدبًا، نتأدب مع الله، فلا ننسب الشرَّ إليه فعلًا، وإن كان يُنسب إليه خلقًا، فمن الذي خلق إبليس الذي هو رأس الشر؟ خلقه الله سبحانه وتعالى، والله لا يفعل الشر وإن كان خلقه جل وعلا.

موسى عليه السلام وملك الموت:

لم يذكر الله عز وجل لنا كم مكث موسى عليه السلام في بني إسرائيل، ولكن ذكر لنا النبي عليه السلام أن الله عز وجل قد أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام، فقال له: أجب ربك. قال: فلطم موسى عليه السلام عين ملك الموت، ففقأها. قال: فرجع الملك إلى الله تعالى، فقال إنك أرسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت، وقد فقأ عيني. قال: فرد الله إليه عينه. وقال: ارجع إلى عبدي، فقل الحياة تريد؟ فإن كنت تريد الحياة؛ فضع يدك على متن ثور، فما توارت يدك من شعره؛ فإنك تعيش بها سنة. قال: ثمّ مَه؟ قال: ثمّ تموت، قال: فالآن من قريب، ربِّ أمتني من الأرض المقدسة رمية بحجر»[2].

فموسى عليه السلام بعد هذا العناء، وبعد هذه الحياة الطويلة، وكيف أنه كان مستهدفًا في زمن فرعون وبعده، ثم الإيذاء الذي وقع له عليه السلام، ثمّ يدخل عليه أحد في بيته ويقول له: أجب ربك، سأقتلك، وأقبض روحك، فقام موسى عليه السلام فلطمه، ففقأ عينه، فقأ

---

١ أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب.

٢ أخرجه البخاري (١٣٣٩)، ومسلم (٢٣٧٢).

عين مَنْ؟ إنه ضرب الآدمي الذي أمامه، فقد أتاه ملك الموت على صورة آدمي، فلم يعرفه، ثمّ إن ملك الموت تأدَّب مع موسى عليه السلام فما قبض روحه، فهو كليم الله عز وجل، وله منزلته، فرجع إلى ربه، فقال: رب إنك أرسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت، وقد فقأ عيني، فرد الله عينه، فالضربة لم تأتِ على الملك، وإنما على صورة الآدمي؛ لأن الملك خُلِقَ من نور، لكنه يتشكل بصورة الآدمي، فردَّ الله له عينه، وقال له: ارجع إلى موسى، فقل له: الحياة تريد؟ فإن كنت تريدها؛ فضع يدك على متن ثور، فما توارى تحت يدك من شعره، فإنك تعيش بها سنة، لك بكل شعرة سنة، فرجع الملك إلى موسى عليه السلام وعينه قد رجعت صحيحة، قال: يقول لك ربك: ضع يدك على ظهر ثور، ولك بكل شعرة تواريها يدك سنة، قال موسى: ثمّ مَه؟ قال: ثمّ تموت، قال: «فالآن من قريب»، وجاء عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يموت نبي إلّا ويخيره الله بين الحياة والموت»[1]، واختار موسى صلوات الله وسلامه عليه الموت، ثمّ قال: «رب أمتني من الأرض المقدسة برمية حجر» يعني: أريد أن أموت قريبًا من المكان المبارك، من الأرض المقدسة، وهذا يدلّ على أن الإنسان كلما دُفن في مكان مبارك كان أفضل. فقال له سبحانه: لك هذا، فدفن موسى عليه السلام في ذلك المكان وهكذا تُوفي نبي الله موسى صلوات الله وسلامه عليه.

١ أخرجه البخاري (٤٤٣٧)، ومسلم (٢٤٤٤).

قصة نوح عليه السلام

نوح عليه السلام

آدم الثاني، أو آدم الأصغر، وهو نبي الله نوح -صلوات الله وسلامه عليه-، وقيل له: «آدم الثاني»، أو «آدم الأصغر»؛ لقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ * وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾، فكل مَن على وجه الأرض هم من ذرية نوح -عليه الصلاة والسلام- مصداقًا لطلب نوح من ربه -تبارك وتعالى-: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾.

ونوح عليه السلام من أولي العَزْم من الرُّسل، بل هو أول رسولٍ أُرسِل إلى أهل الأرض، وذلك أن آدم -صلوات الله وسلامه عليه- نبيٌّ، وليسَ برسولٍ، فنوحٌ -صلوات الله وسلامه عليه- هو أول رسول أُرسِل إلى الأرض.

وقد جاء أنَّ رجلًا سأل النبيَّ ﷺ: كم كان بين آدم ونوح؟ فقال: «عشرة قرون»[1].

وجاء عن ابن عباس -رضي الله عنه- أنه قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام[2].

والقرن كما ذكر أهلُ العلمِ إمَّا أنْ يكون مئة سنة، أو أنَّ المقصود من القرن هو الجيل من الناس، فكلُّ جيلٍ قرن، فيكون قريبًا من أربعين سنة.

ونوحٌ -صلوات الله وسلامه عليه- ذُكِر في القرآن الكريم ثلاثًا وأربعين مرةً.

إنَّ الناسَ بعد آدم مكثوا قرونًا طويلةً، وهم أمةٌ واحدةٌ على التوحيد، على الفطرة ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾، حتى جاءتهم الشياطين، فأدخلت عليهم الشرور المتنوعة، وذلك أنَّ قومَ نوحٍ صلوات الله وسلامه عليه مات منهم أناسٌ صالحون، فجاءهم الشيطان، وأمرهم أنْ يُصَوِّروا لأولئك الصالحين صورًا، حتى إذا رأوهم تذكَّروهم، وتذكَّروا عبادتهم، فكان ذلك سببًا في نشاطهم في العبادة، واستمروا على ذلك زمنًا حتى مات أولئك القوم، فجاء مَنْ بعدهم، ثم مَنْ بعدهم، فجاءهم الشيطان، وقال لهم: إنَّ هذه الصور بها كانوا

---

١ أخرجه ابن حبان (٦١٩٠)، والطبراني في "الكبير" (٧٥٤٥)، وفي "الأوسط" (٤٠٣). من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٢٦٦٨، ٣٢٨٩): "وبين نوح وإبراهيم عشرة قرون".

٢ أخرجه الحاكم (٣٦٥٤)، وصححه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي.

يستشْفِعون، وبها ينزل عليهم المطر، وكانوا يدعونها، فَادْعُوها، فَدَعَوْها من دون الله -تبارك وتعالى-، وهو مصداق قول الله -تبارك وتعالى- عنهم: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، فعبدوا هذه الصور من دون الله -تبارك وتعالى-، وهذا هو المشهور عن ابن عباس -رضي الله تبارك وتعالى عنهما-.

أساليب دعوة نوح عليه السلام لقومه:

لمَّا كفر أولئك القوم من ذريةِ آدم -صلوات الله وسلامه عليه-؛ أرسل الله إليهم نبيه نوحًا، وأمره أن يدعوهم إلى عبادة الله -تبارك وتعالى- وحده، فلم يُقَصِّر، واستخدم عدةَ أساليب في الدعوة إلى الله -جل وعلا -، فمن تلك الأساليب التي استخدمها:

أولًا: أسلوبُ التَّرغِيب، كما في قول الله -تبارك وتعالى- عن نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾.

ثانيًا: أسلوبُ التَّرهِيب، فذكرَ الله عنه أنَّه قال لهم: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

ثالثًا: أسلوبُ المُحاورة، ومنه ما ذكر الله -تبارك وتعالى- عنه أنه قال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾.

رابعًا: أسلوبُ الصَّبر وتحمُّلِ الأذى، وكان هذا من أساليبه -صلوات الله وسلامه عليه- أن صبر وتحمل ما جاء منهم من أذى، وكلنا يعلم أن نوحًا -صلوات الله وسلامه عليه- مكث في قومه ألفَ سنةٍ إلا خمسين عامًا كما أخبرَ الله -تبارك وتعالى- عنه فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾.

خامسًا: أسلوبُ التَّلَطُّفِ في الخِطاب، فكان -عليه السلام- يتلطَّفُ معهم في الدعوة إلى الله -سبحانه وتعالى-، وذلك لما جاءوه وطلبوا منه أن يطرد الضعفاء الأراذل -على قولهم- فكان قول نوح -عليه السلام-: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ

إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾.

وكذلك لمَّا اتهموه بالضَّلال، فما زاد أنْ قال -صلوات الله وسلامه عليه-: ﴿يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ إي والله، كيف يكون به ضلالة، واللهُ بعثَهُ لتزول به الضلالة؟!

ولما قالوا له: ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ * قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾.

وهكذا استمر في الدعوة إلى الله -تبارك وتعالى-، وقومه يكيلون له الأذى كَيْلًا، حتى إن هذا الأذى تمثَّلَ في قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾، هذا أول ردٍّ ردُّوا به على نوح -صلوات الله وسلامه عليه-: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ يعني: نراك اتبعك أراذلنا، وضعفاؤنا، وما اتبعك كبراؤنا.

وقولهم: ﴿بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ أي: الذين لم يتمهلوا حتى في معرفة الحق من الباطل، بل كان رأيهم سريعًا، واتخذوا القرار دُونَ تمهُّلٍ، ودُونَ دِراسةٍ، ثمَّ قالوا كذلك: ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾، حتى تكونوا أنتم أفضل منا، ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾، وقالوا كذلك: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، وقالوا: ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾، وقالوا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وقالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾، هذا ردُّ قوم نوح -عليه صلوات الله وسلامه-، تمثل في هذه الأمور الثمانية:

الأول: أنت بشر كمثلنا، أنتبع بشرًا مثلنا؟!

الثاني: أتْبَاعُك أراذلنا، الذين يتخذون الرأي دون دراسة.

الثالث: ما نرى لكم علينا من فضل، أنتم كأمثالنا، ما لكم علينا من فضل حتى نتبعكم.

الرابع: نظنكم كاذبين.

الخامس: نراك في ضلال مبين.

السادس: لو شاء الله لأنزل ملائكة، لِمَ لَمْ يُنْزِل ملائكة، فنتبع الملائكة؟!

السابع: ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين.

الثامن: بك جنون.

هكذا ردُّوا على نبي الله نوح واتهموه -صلوات الله وسلامه عليه-.

قوم نوح عليه السلام يواجهوا دعوته بالرد والأذى:

ثم واجهوه بالأذى، آذوه -صلوات الله وسلامه عليه-، وإلا بِمَ صار نوح -صلوات الله وسلامه عليه- من أولي العزم من الرسل إلا لذلك الأذى الذي أصابه من قومه -صلوات الله وسلامه عليه-.

اتهموه بالجنون، وهو مِصداق قوله -تبارك وتعالى-: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾.

واتهموه بالضَّلال: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، اتهموه بالجَدَل العَقِيم: ﴿قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾.

توعَّدُوهُ بالرَّجْم: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾.

سَخِروا منه: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾.

وأساؤُوا الأَدَب: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، وكل هذا لمْ ينفع مع قوم نوح -صلوات الله وسلامه عليه-، وتأملوا قولهم: ﴿قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾ إنْ كنتَ صادقًا أنَّك رسولٌ من الله -تبارك وتعالى- فائتنا بآيةٍ، فلا حاجة إلى الإكثار من الجِدال معنا، فقد بلَّغتنا، ونحن كذَّبناكَ، وسَئِمنا من كثرة الخُصومة معك، وقد توعدتنا بعذابٍ فأتنا بالعذاب.

نوح عليه السلام يصبر على أذى قومه:

وبقي نوح -عليه السلام- ثابتًا على دينه متوكلًا على ربه -تبارك وتعالى-، مشفقًا على أمته، دائبًا في دعوته مئاتَ السِّنين وقومه لا يزدادون إلا سخريةً منه وعنادًا وإصرارًا على ما هم عليه من الشِّرك حتى قالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ

وَنَسْرًا﴾، ومع هذا استمرَّ في دعوته حتى قال الله له: ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾، انتهى الأمر لن يؤمن أحد، أدَّيْتَ الذي عليك، ولن يتّبعك أحدٌ بعد الذين اتبعوك، عندها قال نوح: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾، حكمتَ يا رب أنه لن يؤمن أحد بعد الذين آمنوا، إذًا يا ربِّ عجِّل لهم العذاب، فدعا نوح -صلوات الله عليه- على قومه، ولذلك عندما يأتي الناس نوحًا يوم القيامة فيقولون: «يا نوح أنت أول رسول أرسله الله إلى الأرض، اشفع لنا عند ربك، فيقول: إني دعوت على قومي»[1].

نوح عليه السلام والتحدي الأكبر:

كان نوح -عليه السلام- لما واجهه قومه بالأذى وتوعَّدوه بالرَّجمِ وغير ذلك تحدَّاهم أكبرَ التَّحدي، حتى قال بعضُ أهل العلم: إنَّ مُعجزة نوح -صلوات الله وسلامه عليه- تتمثل في ذلك التَّحدي الذي تحدَّى به قومه، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾، هكذا تحدَّى نوح قومه -صلوات الله وسلامه عليه-، وهذا الكلام من نوح يدل على ثِقة ويقين، ولا يكونان أبدًا إلا لأمثالِ نوح -صلوات الله وسلامه عليه-.

وهذا التحدي تمثَّل في خمس صور:

١- قوله لهم: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾، لا تختلفوا عليّ، لا يقل أحد شيئًا والآخر شيئًا، مع أن اختلافهم جيد بالنسبة له، ولكنه قال: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ لا تختلفوا عليّ، اتفقوا حتى تكونوا كالجسد الواحد.

٢- ثم قال: استعينوا بشركائكم من الجن والإنس والأصنام التي تدعونها من دون الله -تبارك وتعالى-.

---

١ أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٣- ثم قال: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾، لا تكتموا، لا تسرُّوا لبعضكم البعض، لا تجلسوا في الليالي، تحدثوا نهارًا جهارًا.

٤- ﴿ثُمَّ ٱقْضُوا إِلَيَّ﴾ أنجزوا، اتفقوا، اعدموني، ارجموني، افعلوا ما تشاؤون.

٥- ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾، ولا تمهلوني.

استمر نوح عليه السلام في الدعوة إلى الله -تبارك وتعالى- حتى بلغ السيل الزُبى، عند ذلك قال نوح -صلوات الله وسلامه عليه-: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، و﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا * وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾، ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾، وذكر الله عنه فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾، ومنه قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ عندها، بعد أن أتمَّ نوح -صلوات الله وسلامه عليه- دعوته لقومه أمر الله نوحًا أن يصنع السفينة، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا مِنْهُ﴾.

قال أهل العلم: سخروا منه لأمرين اثنين:

الأمرُ الأول: أنهم قالوا: يا نوح قد كنتَ نبيًا فصِرتَ نجارًا، فسخِروا منه.

الأمرُ الثاني: أنهم قالوا: يا نوح مَنْ يصنع السفينة يسير بها في البحر، وأنت في البرّ! ما تصنع بهذه السفينة؟

وكان نوح -صلوات الله وسلامه عليه- بكل ثِقة ويقين يقول لهم: ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾، ولكن تسخرون عاجلًا، ونسخر آجلًا، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ * وَمَآ أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ * فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾.

وتركوا نوحًا، وصنع السفينة، وذكروا أنه صنع السفينة في أربعينَ سنة، وذكر بعضهم أنه غرس أشجارًا ثم رَعَاها حتى قَويَت واشتدَّت، ثمَّ أخذَ منها الخشب، وصنع منها السفينة،

وكلّ هذا من روايات بني إسرائيل التي لا تُصَدَّق ولا تُكَذَّب.

وقد بناها سفينةً عظيمةً وجعلها ثلاثةَ طوابق، وجعل الطابق السفليّ للدواب والوحوش، والطابق الأوْسَط للبشر الذين معه، والطابق الأعلى للطيور، قال الله -تبارك وتعالى- بعدما صنع نوح السفينة وأتمَّها: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَنۡ سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾، ما آمن معه إلا قليل، جلس يدعو ألف سنة إلا خمسين عامًا، تسعمئة وخمسون سنة، وما آمن معه إلا قليل، فلا تحزن إذا كنت تدعو إلى الله -تبارك وتعالى- ولم يؤمن معك إلا قليل، بل لا تحزن إن لم يؤمن معك أحد، المهم احزن إن قصرتَ أنت في الدعوة إلى الله -تبارك وتعالى-، أما اتباع الناس لك فالأمر ليس في يدك ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾.

عدد مَنْ آمن مع نوح عليه السلام:

قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾، وهذا القليل -كما ذكرت كتب أهل الكتاب- أنهم لم يتجاوزوا الثمانين من رجال ونساء.

وقال بعضهم: ثلاث وثمانين، والله أعلم بعددهم، ولكن يكفينا قول الله: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾، ويكفينا أنهم حملتهم مع دوابهم وطيورهم سفينة فهم لا شك قليل، وسفينة مشحونة كما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ أي: شُحنوا فيها شحنًا.

نوح عليه السلام يركب سفينته وينزل العذاب على قومه:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرَىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ إنّ نوحًا -عليه الصلاة والسلام- لما ركب السفينة قال: بسم الله تسير وتجري، وبسم الله ترسو، فهذا نوح -عليه السلام- دائمًا يتعلق بربه -تبارك وتعالى-، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ * فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ * وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ * وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ * تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾، فجَرّ الله الماء من الأرض

﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ صارت الأرض كلها عيونًا، ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَاءُ﴾ التقى ماءُ السماء بماءِ الأرض، ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: قُدّر بأمر الله -تبارك وتعالى-، هنا الآن ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا﴾ تصْنَعُ سفينة في البر! صرتَ نجارًا بعد أن كنتَ نبيًا! هذا وقت السفينة ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ الدُّسُر: المسامير، ألواح ومسامير، ﴿وَحَمَلْنَاهُ﴾ أي نوحًا -عليه الصلاة والسلام- ومَنْ معه ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: برعايتنا، وعنايتنا، وحفظنا، ورحمتنا، حَفِظَها الله -تبارك وتعالى-، ﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ هذا الجزاءُ يا نوح لما كفروك وعادوك وآذوك، انظر الآن كيف دمرهم الله -تبارك وتعالى-.

يقول الله -جل وعلا-: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ موج كالجبال، قد لا يستطيع الإنسان أن يتصور هذا الأمر، ولكن يكفينا أن نصدق قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ٱبْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَابُنَيَّ ٱرْكَبْ مَعَنَا﴾ ينادي ابنه ﴿يَابُنَيَّ ٱرْكَبْ مَعَنَا﴾ حتى تنجو، فقال: ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَاءِ﴾ يقول لابنه: ﴿يَابُنَيَّ ٱرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ ٱلْكَافِرِينَ﴾ أولئك كافرون سيهلكهم الله، وهذه شفقة في قلب نوح على ابنه، شفقةُ الأب على ابنه؛ ولذلك الله -تبارك وتعالى- وصى الإنسان بوالديه، فقال: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِٱلْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ لكن لم يوصِ الأب أبدًا، ولم يوصِ الأم بالولد؛ لأن هذه الشفقة مغروسة في قلوبهم، في قلوب الآباء والأمهات، ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ ٱلْكَافِرِينَ﴾، ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ﴾ يظن أن الأمر تنفع معه الحيلة، بل هو كما في حال المؤمنين يوم القيامة عندما يمشون على الصراط، أتظنون أن الذي يمشي على الحبل في الدنيا هو الذي سيمشي على الصراط!! بل التثبيت من الله -تبارك وتعالى-، كذلك الأمر هنا، أتظن أنه كلما صعد الإنسان إلى أعلى نجا؟! لا، وإنما من أراد الله لهم النجاة ينجون، ولذلك لما قال: ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَاءِ﴾ جاء الرد من أبيه: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ لا جبل، ولا غير جبل، ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ وهم الذين ركبوا في السفينة، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ الأمر إذًا لحظات، اركب.. سآوي.. لا عاصم.. حال بينهما الموج.. ذلك أن السماء قد انفتحت كالقُرَب، والأرض تفجرت كالعيون، والتقى ماءُ السَّماء مع ماءِ الأرض حتى عَلا أعلى شاهق في الأرض، ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾، وأنجى الله نوحًا ومن معه.

بعد أن أغرق الله جميع الكافرين قال: ﴿وَقِيلَ يَاأَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ﴾ أدَّيتِ ما عليكِ، فهي جندٌ من جنود الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾، ﴿وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ السماء المقصود به المطر، توقف المطر، الأرض ابتلعت ما عليها، ﴿وَغِيضَ ٱلْمَاءُ﴾ غِيضَ: يعني نَقَصَ، ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾، هنا توقفت السفينة على البر مرة أخرى، والجُوديّ هو اسمُ جِنسٍ يطلق على أيّ جبل، فيقال: جُوديٌّ كذا، وجُوديٌّ كذا، وجُوديٌّ كذا.

قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾.

هكذا، لحظات وانتهى كل شيء كأنه حُلم، موج، وعذاب، ولا أحد إلا نوح -عليه الصلاة والسلام- ومَنْ معه في السفينة والأرض يباب، كل من عليها هلك، كل من على وجه الأرض؛ ولذلك قيل لنوح: إنه آدم الثاني أو آدم الأصغر.

قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ أَنْصَارًا﴾.

يقول الله -تبارك وتعالى- بعد أن انتهى الأمر: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ ٱلْحَاكِمِينَ﴾ لأن الله قال: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾، فقال نوح: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ يعني: إنك أخبرتني أنك تُنْجِيني وأهلي وأنت أحكم الحاكمين، ما الذي حصل؟ لِمَ لَمْ ينجُ؟ ولكن هذا من أدب نوح مع ربه -تبارك وتعالى- أن تكلم بهذه الطريقة، فقال الله له: ﴿يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ﴾ إنه عمل غير صالح، ما معنى إنه عمل غير صالح؟ قال بعض أهل العلم من أهل التفسير لها معنيان:

الأول: إنه عَمَلٌ غيرُ صالح؛ أي: هذا العمل منك يا نوح غير صالح أن تسألني ما ليس لك به علم، يعني: دعاؤك هذا عملٌ غير صالح؛ ولذلك جاء بعده التأنيب في قوله: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ﴾.

الثاني: إنه عَمَلٌ غيرُ صالح أي: ركوب الكافر معك، أنت لا يركب معك إلا المؤمن، وهذا كافر كيف يركب معك؟ إنه عمل غير صالح منا إذا أركبنا الكافر معك.

وهناك قراءة أخرى: «إنه عَمِلَ غير صالح» يعني: إن ابنك عَمِلَ عَمَلًا غير صالح، فلا ينجو معك، وهي قراءة سبعية صحيحة.

من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه:

وهنا في غرق ولد نوح وغرق امرأته كذلك -كما سيأتي- يتبين أن الأسباب كلَّها تنقطع يوم القيامة إلا ما كان متصلاً بالله وحده على أيدي رسله، وذلك أن الاتصال بين الناس مع الأنبياء فوق اتصال البنوة، والأبوة، والزوجية، بل هذا هو أشد اتصال بين الناس، أشد الناس الذين تتصل بهم في هذه الدنيا وتشفق عليهم؛ إما أن يكون اتصال أبوة «أب أو أم»، أو اتصال بنوة: «ابن أو بنت»، أو اتصال زواج، ولكن هذا الاتصال إن لم يكن معه اتصال عقدي؛ فإنه لا ينفع، ولذلك لم يغنِ نوحٌ عن ابنه وزوجته، ولم يغنِ إبراهيم عن أبيه، ولوط كذلك عن زوجته، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

خيانة دين لا خيانة فراش:

قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَةَ نُوحٍ وَٱمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ﴾ هنا: الخيانة لا شكَّ أنها خيانة الدين، وليست خيانة الفراش بأي حال من الأحوال، وذلك لأسباب كثيرة منها:

أولًا: أنه لو كان من امرأة نوح وامرأة لوط زنا؛ لكان قومهما عيراهما بهذا، كما كان يُعَيِّر نوح قالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ﴾، وغير ذلك من الاتهامات التي اتهموا فيها نوحًا، ولو كانت امرأته كذلك لقالوا: فراشك غير طاهر، فلما لم يُتهم بهذا عُلِمَ أن الخيانة لم تكن خيانة الفراش.

ثانيًا: قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ٱبْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾، وقال: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ وذلك أن بعضهم قال: إن ابن نوح هذا الذي لم ينجُ كان ابن زنا، وهذا كذب، بل الله سماه ابنًا له، فقال: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ٱبْنَهُ﴾، فنسبه إليه، وقال عن لوط: ﴿آلَ لُوطٍ﴾ فنسبهم إلى لوط -صلوات الله وسلامه عليه-.

ثالثًا: قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ٱلْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾، ونوح طيب فله الطيبات، ولكنها خبيثة في الدين، في العقيدة، فأما الخباثة في العرض فالله نزَّه أنبياءه عن ذلك.

رابعًا: لو كانت الخيانة بالزنا لما قال الله: ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ﴾؛ لأن الزنا لا تخرج الإنسان من الملة، وإنما الذي أخرجها من الملة خيانةُ الدين، فلما خانت نوحًا -عليه الصلاة والسلام- في دينه؛ حكم الله عليها بدخولها النار.

خامسًا: قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، فلا يمكن أبدًا أن الله يختار نساءً لأنبيائه أمثال هؤلاء، ولذلك نصَّ أهل العلم: أن من اتهم امرأة نبي بالزنا؛ فهو كافر خارج من ملة الإسلام.

أمَّةُ محمد ﷺ تشهد لنوح عليه السلام:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء نوح وأمته، فيقول الله تعالى: هل بلَّغْت؟ فيقول: نعم أي رب، فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا ما جاءنا من نبي» تصوروا تسعمئة وخمسون سنة، وبعد هذا كلِّه تأتي أمة نوح يوم القيامة تقول: «ما جاءنا من نبي»، ما بلغنا، فيقول الله لنوح: «من يشهد لك؟» أنت تقول: بلغت، وهم ينكرون، من يشهد لك يا نوح فيقول: «محمد ﷺ وأمته» يقول النبي ﷺ: «فنشهد أنه قد بلغ»، وهو قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ والوسط العدل»[1].

فتشهد هذه الأمة، تشهد بماذا؟ تشهد بأن الله صادق، تشهد بأن النبي صادق، تشهد بأن ما جاء في كتاب الله حق، فتشهد أن نوحًا قد بلغ.

---

١ أخرجه البخاري (٣٣٣٩).

الدروس والعبر المستفادة من قصة نوح عليه السلام:

أولًا: عقاب قوم نوح فيه دليل على أن الجزاء قد يكون أحيانًا في الدنيا، وقد يكون في الآخرة.

ثانيًا: إنّ جميع الرسل من نوح إلى محمد -عليهم السلام- متفقون في الدعوة إلى التوحيد الخالص، كلهم يدعون إلى عبادة الله -تبارك وتعالى- وحده لا شريك له.

ثالثًا: من آداب الدعوة ما قام به نوح أنه دعاهم ليلًا ونهارًا، وسرًّا وجِهارًا، وصبر على هذا صبرًا عظيمًا.

رابعًا: ينبغي ذكر الله دائمًا والاستعانة به ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُوا فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرَىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآ﴾.

وقفة:

يُروى أن نوحًا بعد هذا العمر الطويل المديد سُئل، فقيل له: كيف رأيت الدنيا؟ قال: رأيتها كبيتٍ له بابان، دخلتُ من أحدهما وخرجتُ من الآخر.

قصة إسماعيل عليه السلام

إسماعيل عليه السلام

إسماعيل عليه السلام، ذكره الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز فقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِٱلصَّلَاةِ وَٱلزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾.

المشهور أنه أرسل إلى العرب، ولذلك جاء في الأخبار أن العرب الذين كانوا يطوفون حول الكعبة، وقد خلطوا الحج بشركيات، فوضعوا عند المروة صنمًا وعند الصفا صنمًا، ووضعوا داخل الكعبة أصنامًا وفوقها وحولها وكانوا يطوفون بالبيت، يغنون، يصفقون ويصفرون، ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ لكن أصل الحج موجود عندهم، إذًا هم على دين إسماعيل صلوات الله وسلامه عليه، وقد ذكر النبي ﷺ أن أول من أتى بالأصنام إلى مكة هو عمرو بن لحي الخزاعي لما كانت خزاعة تحكم مكة قبل قريش، جاء بها عمرو بن لحي من جدة، ثم عبدتها العرب بعد ذلك ومما يدل على أنهم على دين إسماعيل أمور، منها:

الأمر الأول: أن النبي ﷺ كان حنيفًا، كان يعبد الله تبارك وتعالى في غار حراء كما هو مشهور على ملة إبراهيم، لكنه لا يعرف تفاصيل الشرع لكن يعرف أن هناك ربًّا سبحانه وتعالى وأنه يجب أن يُعْبَد وأن هذه الأصنام لا يجوز أن تُعْبَد، ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ أي: ضالًا عن تفاصيل الشرع، لا أنه كان مشركًا.

الأمر الثاني: وأخبر النبي ﷺ الرجل الذي جاءه وقال له: يا رسول الله أين أبي؟ قال: «أبوك في النار»، فولَّى الرجل وهو متضايق، فناداه النبي ﷺ، قال: «أبي وأبوك في النار»[1].

فالشاهد أن أهل مكة كانوا مطالبين بدين إسماعيل، وبمِلَّة إسماعيل صلوات الله وسلامه عليه، ولكنهم كفروا بها، ومن بقي منهم على دين إسماعيل ووصل ذلك لنا زيد بن عمرو بن نفيل مثلًا، ومحمد ﷺ، كانا على دين إسماعيل كانا موحّدين.

---

١ أخرجه مسلم (٢٠٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

محمد ﷺ من ذرية إسماعيل عليه السلام:

وإسماعيل لم يكن من ذريته من الأنبياء إلا واحد وهو محمد ﷺ خاتم الأنبياء وسيدهم، ويثبت أن محمدًا من ولد إسماعيل صلوات الله وسلامه عليه: إخباره هو صلوات الله وسلامه عليه أنه من ولد إسماعيل، حيث قال صلى الله عليه وسلم: «إن الله اصطفى قريشًا على العرب واصطفى بني هاشم من قريش، واصطفاني من بني هاشم»[1]، فهو خيار من خيار من خيار صلوات الله وسلامه عليه، وسمى الله تبارك وتعالى إبراهيم أبًا له فقال: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾، وهذا باتفاق أن النبي ﷺ من ذرية إسماعيل.

١ أخرجه مسلم (٢٢٧٦) من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه.

قصة هود عليه السلام

هود عليه السلام

ذكرنا أول رسول للعالمين وهو نوح عليه السلام، والآن نذكر أول رسول عربي، والرسل من العرب أربعة كما جاء في حديث أبي ذر -رضي الله عنه- أنه سأل النبي ﷺ عن الأنبياء والمرسلين، وذكر حديثا طويلًا، وفيه أن النبي قال له: "أربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيك يا أبا ذر"[1].

نسبه وقبيله:

يرجع نسب هود عليه السلام -كما اتفق أهل الأنساب- إلى سام بن نوح وإن اختلفوا في عدد الآباء أو أسمائهم الذين هم بين هود وسام بن نوح.

ذُكر نبي الله هود في القرآن سبع مرات، وُذكرت قبيلته وهي عاد سبعًا وعشرين مرة، وهو من هذه القبيلة التي كانت تسكن الأحقاف، فهو أخو عاد الذي أنذرهم بالأحقاف، والأحقاف جبال من الرمال في اليمن، يقال: أنها بين عمان وحضرموت في بلد هناك يقال لها: الشُّحر، وهي الآن في اليمن وهي بلد زراعية.

وعاد قوم هود من العرب، والعرب تنقسم إلى ثلاثة أقسام كما قيل: عرب عاربة بائدة، وعرب عاربة باقية، وعرب مستعربة.

وهود من عاد، وعاد من العرب العاربة البائدة، ومثلهم قوم صالح وهم قوم ثمود وطسم وجُدَيس، هؤلاء كلهم من العرب العاربة البائدة التي لم يبقَ منها أحد، وكانوا يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخمة، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ وعاد إرم هم: عاد الأولى قوم هود، وعاد الثانية قيل: هم قوم ثمود -قوم صالح عليه السلام-، وقيل: هم من سبأ من قحطان، فالعلم عند الله تبارك وتعالى.

---

١ أخرجه ابن حبان (٣٦١) وضعف إسناده جدًا الأرناؤوط.

قوم هود أول من عبد الأصنام بعد نوح:

وهم أول من عبد الأصنام مِنْ ذرية نوح عليه السلام، بعد ما جاء الطوفان وعَمَّ الأرض كما قال نوح عليه السلام: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ فقد عم الطوفان الأرض كلَّها، ولم يبق إلا ذرية نوح كما ذكرنا في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ وهكذا تناسلت هذه الذرية حتى وصلت إلى قوم عاد.

الصفات الخَلْقية لقوم هود عليه السلام:

ويكفينا قول الرسول ﷺ: "خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعًا فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن"[1]، فآدم هو أعظم مخلوق خلقه الله تبارك وتعالى من الإنس، ثم الخلق بعد ذلك يَقْصُر إلى يومنا هذا، وهم لهم خِلْقَةٌ عظيمةٌ كما بين الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾، وقال الله عنهم: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾، وقال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

إرسال هود عليه السلام إلى قومه وموقفهم من ذلك:

أرسل الله تبارك وتعالى نبيه هود صلوات الله وسلامه عليه، وهو كسائر الأنبياء دعوتهم واحدة، وهي الدعوة إلى عبادة الله تبارك وتعالى وحده لا شريك له، فكان موقفهم كموقف قوم نوح من نوح، وسيكون موقف الأقوام من بعدهم كموقفهم من أنبيائهم، فكان موقف قوم هود من هود عليه السلام أن وجهوا الاتهامات إليه، وهي:

أولًا: أنهم اتهموه بالسفه، فقالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾.

ثانيًا: اتهموه بالكذب، فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، وقالوا كذلك: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

---

١ أخرجه البخاري (٣٣٢٦)، ومسلم (٢٨٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثالثًا: اتهموه بالجنون صلوات الله وسلامه عليه، فقالوا: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ أي: في عقلك.

وهذه الاتهامات التي اتهم بها هود صلوات الله وسلامه عليه هي الاتهامات نفسها التي اتهم بها الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِ﴾ أي: أتواصت هذه الأمم على هذه الاتهامات التي توجه إلى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ولقد خُوّف إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، فكان رده عليهم: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ هذا التخويف الذي خوفوا به هودًا صلوات الله وسلامه عليه، وقالوا: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾، وكان الرد من هود عجيبًا، وذلك أنه قال لهم: ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ وقوله: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ موقف مِلْؤه التحدي، مِلْؤه الإيمان، مِلْؤه الثقة التامة والتوكل العظيم على الله تبارك وتعالى، وهم يقولون: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ فيرد عليهم ويقول: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ﴾ ثم أشهدكم أنتم، ﴿وَاشْهَدُوا﴾ أني بريء من هذه الآلهة، فلتفعل ما شاءت، ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ أنتم وآلهتكم، ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ وسبب هذا التحدي ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ﴾ الذي هو أعظم من آلهتكم جميعًا، بل هو: ﴿رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ وهو خالقكم ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ﴾ كل ما يدب على وجه هذه الأرض، على وجه البسيطة ﴿إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ الناصية مقدمة الشعر، والأخذ بالناصية يعني: يقودها قودًا رغمًا عنها، ولكن بدون ظلم وبدون حيف، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لا يظلم سبحانه وتعالى.

ثم قال لهم هود صلوات الله وسلامه عليه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ يعني: إن توليتم ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ أدَّيت الذي عليّ ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ فهو أدى ما عليه من البلاغ من أمر ربه له أن يدعوهم، ثم قال: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ فالأمر على الله يسير ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾، ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾، فالله لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية كما قال سبحانه في الحديث القدسي: "يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي

شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا"[1].

أليس هذا هو واقع قوم نوح مع نوح عليه السلام؟

رابعًا: تمسكوا بما كان عليه الآباء والأجداد، قالوا: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.

خامسًا: أنكروا البعث، قالوا: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ هكذا قالوا، ينكروا البعث، وهذا كقول من يقول: إنما هي أرحام تدفع وأرض تبلع، قيامة! حساب! جنة! نار! لا، حياة ثم موت، وينتهي الأمر كله.

سادسًا: العناد، استخدموا العناد مع هود عليه السلام، قالوا: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ * إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ وفي هذه الآية قراءتان سبعيتان صحيحتان:

الأولى: ﴿خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾، وهي قراءة عامّة القراء.

الثانية: خَلْقُ الأولين بفتح الخاء، وسكون اللام، وهي قراءة أبي جعفر، وأبي عمرو بن العلاء.

وكل قراءة لها معنى، فعل القراءة الأولى: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾، أي: هذه عادة الأولين يموتون وينتهي الأمر.

وأما القراءة الثانية: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ﴾، فيحتمل أمرين اثنين:

الأول: يقصدون أنّ خلقهم كخلق الأولين، نموت كما ماتوا نحيا كما حيوا، لا نبعث كما لم يبعثوا إلى الآن؟

الثاني: أي: من الاختلاق، وهذا الكلام الذي تقُوله يا هود هو اختلاق الأولين؛ أي: كذب الأولين؛ أي: أنك تكذب يا هود فيما تقول إن هناك يومًا آخر.

---

١ أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

سابعًا: واجهوه بالكذب والبهتان فقالوا: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ما جئتنا ببينة، أنكروا أن يكون أتاهم ببينة، وهذا كذب منهم وافتراء، وذلك أن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾، والله أصدق قيلًا سبحانه وتعالى، الله أخبرنا أن الرسل جاؤوا بالبينات، قال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

فائدة: قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ وهذه الآيات لم تذكر لنا؛ لأن القرآن ليس كتاب تاريخ حتى يذكر لنا كل شيء بالتفصيل، ولكنه كتاب هداية، وكتاب دعوة، وهو منهج يذكر الله لنا ما ننتفع به في حياتنا الدنيا، وفي أخرانا عند الله تبارك وتعالى.

الأساليب الدعوية التي استخدمها هود عليه السلام مع قومه:

أولًا: أسلوب الرقة واللين، فنجد أن قومه اتهموه بالسفه فقالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾، فماذا كان رده عليهم؟

قال: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فاستخدم معهم اللين، وقوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾ فيها تلطف وتودد.

ثانيًا: أسلوب النصح والتوجيه، فقال لهم: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾.

ثالثًا: التذكير بنعمة الله عليه، فقال لهم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾، وقال كذلك: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ فذكرهم بنعم الله سبحانه وتعالى عليهم.

رابعًا: الترغيب بالخير عن طريق الاستغفار والتوبة، فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾.

خامسًا: أسلوب الترهيب، فقال لهم لما آذوه، وبلغ الأذى مداه: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ أنتم سميتموها، آباؤكم سموها آله ولكن في حقيقة الأمر ليست آلهة.

سادسًا: أسلوب التحدي، فقال: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾.

قوم هود عليه السلام يستعجلون العذاب:

عند ذلك كان رد قومه عليه السلام بعد هذه المدة، وبعد هذه الدعوة -التي لم يذكر الله لنا مدتها- بلغ عنادهم أقصاه، فقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، ولما وصل هود إلى هذه المرحلة مع قومه ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾، فكانت الإجابة من الله الذي لا يضيع عبده سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ قليل فقط، وكل آتٍ فهو قريب، انقطع عنهم المطر مدة طويلة، فقيل: إنه انقطع ثلاث سنوات لم تأتيهم قطرة ماء، ثم رأوا عارضًا مستقبل أوديتهم، سحابًا، قالوا: ﴿قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ قال الله تبارك وتعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾.

وذكر الله تبارك وتعالى عذابهم في أكثر من موضع فقال -عز وجل-: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾.

وذكر في آية أخرى: وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾، وقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ شبههم بأعجاز النخل التي لا رؤوس لها، فنحن نرى بعض النخيل الذي يُقْطع ويبقى بدون رأس، عمود فقط، هكذا صاروا والعياذ بالله، رُفعوا إلى السماء بهذه الريح القوية، ثم ضُربوا بالأرض، فصاروا أجسادًا بلا رؤوس.

سخّرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام محسومًا دائمةً متتابعةً، فلم تدع من عاد أحدًا أبدًا ﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾، فلم يبقَ من عاد أحد إلا هود ومن آمن معه؛ لأنه اعتزل في حظيرة هو ومن معه من المؤمنين، ما يصيبهم إلا ما يلين عليهم الجلود، وأهلكت قوم عاد، ولذلك يقال لهم: عرب بائدة؛ أي هلكوا جميعا.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، فما نجا من عذاب الله إلا هود ومن آمن معه من قومه.

الدروس والعبر من قصة هود عليه السلام:

أولًا: أن عاقبة الغرور وخِيمةٌ، وقد قيل: كم قصم الغرور من ظهور، ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

ثانيًا: أن الصبر في الدعوة واللين مع المدعوين أمر مطلوب، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾، وهكذا يجب على الإنسان إذا دعا إلى الله تبارك وتعالى.

ثالثًا: أن الريح جند من جنود الله تبارك وتعالى، عَذَّبَ بها أقوامًا كما في قوم هود صلوات الله وسلامه عليه، وسخرها لآخرين كما سخرها لسليمان، ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾، فهي جند من جنود الله تبارك وتعالى يسخرها الله تبارك وتعالى لمن أطاعه، ويعذب بها من عصاه.

رابعًا: بيان أهمية التوكل على الله تبارك وتعالى، وذلك أن المتوكل على الله يكون جريئًا لا يهاب أحد كما فعل هود مع قومه ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾.

خامسًا: اتخاذ المباني الفخمة للخيلاء أمر مذموم ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾، أما إذا كانت هذه المباني الضخمة للحاجة فجائز، كما تتخذ مثلًا الحصون أو السدود أو أن الإنسان يتحدث بنعمة الله تبارك وتعالى ويسكن، فهذا لا بأس به أبدًا، وإنما البأس كل البأس فيمن يتخذ هذه للخيلاء والفخر على الناس جميعًا.

وأخيرًا.. لا وجود لذكر عاد شيء في الكتب القديمة -أي في التوراة والإنجيل-، وهذا لعله من حسد بني إسرائيل للعرب؛ لأن عادًا من العرب، يريدون أن يقولوا إن جميع الأنبياء من بني إسرائيل.

وهلاكهم كان استئصالًا كما قال تبارك وتعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾، فلم يبقَ منهم أحد ونسأل الله تبارك وتعالى أن يرحمنا برحمته.

قصة صالح عليه السلام

صالح عليه السلام

نبي الله صالح ثاني نبي عربي، وهو أيضًا من نسل سام بن نوح، وجاء ذكر نبي الله صالح في القرآن الكريم تسع مرات، وذُكرت قبيلته (ثمود) أربعًا وعشرين مرة، وقبيلة ثمود من العرب العاربة البائدة التي لم يبق لها نسل.

وثمود نسبة إلى الثَمْد، وهو الماء القليل، وكانت هذه القبيلة تسكن الحِجْر، وهم أصحاب الحِجْر، وهذا الحِجْر ما بين الحجاز وتبوك، وهو تقريبًا يبعد الآن عن المدينة المنورة ثمانين وثلاثمئة كيلو متر، جاؤوا بعد عاد كما قال الله تبارك وتعالى على لسان صالح: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ﴾.

اختلف أهل العلم في مكانهم فيما يعرف الآن بمدائن صالح:

المشهور أن مدائن صالح الموجودة الآن هي مدائن نبي الله صالح عليه السلام.

وثمود هي التي يقال لها: عاد الثانية، فقوم هود هم عاد الأولى، عاد إرم، وثمود يقال لها: عاد الثانية، كانوا أصحاب ماشية، وأصحاب حرث وزرع، ولكنهم بطروا نعمة الله تبارك وتعالى وكفروها كما قال الله -عز وجل- في وصف المشركين: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، أي: تجعلون شكركم تكذيبًا فبدل أن يشكر العبد ربه تبارك وتعالى على ما أنعم عليه من النعم والخير في هذه الحياة الدنيا، فإنه جعل شكره تكذيبًا، تكذيبًا لمن أرسل إليهم رسولًا منهم، من أنفسهم، رجل يعرفونه، يعرفون خُلُقَه ويعرفون دينه ويعرفون أمانته ألا وهو: نبي الله صالح.

صالح عليه السلام يدعو قومه إلى الله عز وجل:

جاءهم نبي الله صالح فدعاهم إلى الله -عز وجل- وذكَّرهم بنعم الله العظيمة التي أنعم بها عليهم، وأتاهم بآية عظيمة، ألا وهي: آية الناقة كما سيأتي تفصيلها إن شاء الله تعالى، فكانت هذه الناقة تَرِدُ الماء يومًا، ويرد أهل القبيلة الماء يومًا آخر، وفي اليوم الذي لا ترد فيه القبيلة

كانوا يردون إلى الناقة فيشربون من لبنها ذلك اليوم فيكفيهم جميعًا، واستمر هذا الحال مدة طويلة إلى أن جاء اليوم الذي سئموا مما هم عليه، فعقروا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم.

أعظم الخصومة:

قال الله تبارك وتعالى في قصة صالح مع قومه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾، إن أعظم خصام يكون في هذه الدنيا هو الخصام بين الكفر والإيمان، لا توجد خصومة أبدًا أعظم من هذه الخصومة، ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ فريق آمن بنبي الله صالح واتبعه، وفريق كفر بنبي الله صالح وخالفه، قال الله تبارك وتعالى في ذكر هؤلاء وأولئك: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾، هكذا قال الكبراء المستكبرون للذين استضعفوا للذين آمنوا منهم، فليس كل الذين استضعفوا آمنوا ولكن مَنْ آمن منهم، قال لهم الكبراء: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ اتّبعتموه على بينة، اتّبعتموه على يقين؟ أتعلمون أن صالحًا مرسل من ربه؟ ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ ولم يقولوا: "نعم" ولو قالوا: "نعم" لكانت إجابتهم صحيحة، ولكنهم أرادوا أن يؤكدوا اتباعهم لصالح، فهم ليسوا مصدقين أنه مرسل فقط، بل متبعون له فيما جاء به ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ قالوا: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾.

من اتبع الأنبياء عليهم السلام:

وهكذا مضت سنة الله تبارك وتعالى، أن الضعفاء هم أتباع الأنبياء، المستضعفون الفقراء المساكين الذين لا حول ولا طول ولا قوة لهم، وذلك أنهم معتادون على تقبل الأمر والنهي، ثم هم مرؤوسون، فإذا كانوا مرؤوسين في ظالم من البشر؛ فأولى بهم أن يكونوا مرؤوسين للصالحين من البشر وهم أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم، وعكسهم تمامًا الكبراء، الذين ما تعودوا أبدًا أن تُصْدَر إليهم الأوامر والنواهي، بل تعودوا أن يُصْدِروا هم الأوامر والنواهي، ما تعودوا أبدًا أن يكونوا تابعين، بل تعودوا دائمًا أن يكونوا متبوعين،

فلذلك تثقل رسالة الأنبياء على الملأ، كبار القوم، ويتقبلها الضعفاء.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، وهذا سبيل جميع المرسلين، كل المرسلين إنما جاؤوا بهذه الحقيقة ألا وهي: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، وما جاء المرسلين لنيل دنيا، وما جاؤوا لينافسوا الناس في أرزاقهم، وإنما جاؤوا لتحقيق هذه الحقيقة العظيمة ألا وهي: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ جاؤوا ليذكروا الناس بهذه الحقيقة، أنكم أيها الخلق إنما خلقكم الله تبارك وتعالى لتعبدوه ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، فصالح إذًا من هؤلاء الأنبياء الذين جاؤوا لتحقيق هذه الكلمة، ووالله ما نافس نوح قومه على رئاسة البلد، ولا على الحكم، ولا نافسهم هود، ولا صالح، ولا نافس نبي الله إبراهيم النمرود على الحكم، ولا نافس موسى فرعون على الحكم، ولا يوسف نازعهم على الحكم، ولا عيسى ولا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إنما جاؤوا لتحقيق هذه الحقيقة العظيمة ألا وهي: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ هذه هي الحقيقة التي بها أُرسل جميع الأنبياء، وهكذا أيضا تكون النتيجة دائمًا، هناك من يتبع الأنبياء، وهناك من يتجبّر ويعاند ويجادل الأنبياء على ما جاؤوا به من الحق.

بداية دعوة صالح عليه السلام:

بدأ معهم صالح صلوات الله وسلامه عليه، فقال لقومه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ لستم أنتم الذين لكم الفضل في مجيئكم إلى هذه الحياة الدنيا، بل الله سبحانه وتعالى هو الذي أنشأكم فيها، فإذا كان الأمر كذلك فلِمَ يُعْبَد غيرهُ؟ ماذا فعلتْ لكم هذه الأصنام حتى تُعْبَد؟ أنتم صنعتموها؟! أنتم أوجدتموها، أنتم أنشأتموها، فكيف تعبدون من أنشأتم، ولا تعبدون من أنشأكم!

﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ واستعمركم هنا تحتمل معنيين:

المعنى الأول: أي: عَمّركم، بلغتهم سنين عددًا في هذه الأرض.

المعنى الثاني: أي: جعلكم مُعَمّرين لهذه الأرض، تبنونها، ولذلك جاء في الآية الأخرى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ وهذا أظهر؛ أي: جعلكم مُعَمّرين لهذه الأرض بما تبنون فيها، فكان الرد من قومه: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا

قَبْلَ هَٰذَا﴾ قبل أن تقول مقولتك هذه قد كنت فينا مرجوًا، وهذا اعتراف منهم، كأنهم يقولون لصالح: أنت حيث تعلم من قبيلتنا، نعرف ولادتك، ونعرف خُلقك، ونعرف أمانتك، ونعرف صدقك من كذبك، نعرفك تمامًا حقَّ المعرفة، بل كنت فينا مرجوًا أن تتصدّر فينا، وأن تكون صاحب كلمتنا، وكنا نرجو فيك العقلَ، ولكنك خيَّبْت ظننا، تدعونا إلى عبادة الله! نترك ما كان عليه آباؤنا! ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.

طبيعة الكافر أنه يلغي عقله:

وهذه هي طبيعة الكفار، يلغون عقولهم، لا يفكرون في الحجج التي يأتي بها رسل الله -صلوات الله وسلامه عليهم- بحجة تقليدهم للآباء، يقول الله -عز وجل-: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ طبيعة واحدة، ورواية واحدة لا تتغير، ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ قصة واحدة متكررة، تزيد هذه بشيء أو تنقص بشيء من مثيلاتها فقط، وهي متكررة على مَرّ الدهور والعصور.

ثم ذكَّرهم نبي الله صالح فقال: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ وذلك أنهم كانوا يبنون القصور الكبيرة في سهول الأرض، وينحتون الجبال، فيجعلون فيها بيوتًا، هذه كانت أعمالهم في هذه الدنيا، ولكنّهم -مع هذا- كانوا وثنيين يعبدون الأصنام.

أسلوب صالح عليه السلام في دعوة قومه:

أولًا: التذكير بعاقبة المجرمين، كما قال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ﴾ تذكروا ما صنع الله بعاد، قد علمتم عاقبة عاد وثمود عاد الثانية.

ثانيًا: الوعظ والتخويف، ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، فذكرهم بنعمة الله عليهم ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ

هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ وهنا رابط النعمة بالمنعم، من الذي أنشأكم؟ الله، وإنشاؤكم نعمة، نعمة من المنعم، ألا يُشْكَر هذا المنعم.

ثالثًا: الرفق واللين واللطف: فقال: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ يقدم لهم عرضًا واضحًا، أنا يا قوم رسول من الله تبارك وتعالى مرسل إليكم ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾.

قوم صالح يقابلونه بالاستهزاء والرفض:

وقابلت ثمود صالحًا بأمور:

أولًا: السخرية والاستهزاء والاتهام، ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا﴾ نحن في شك من كلامك ودعوتك، وفي ريبة من أمرك، قد كنت فينا مرجوًا قبل هذا، أما الآن فلست كذلك، بل اتهموه بأنه مسحور فقالوا: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ أُصبت في عقلك كما قالوا لهود، وكما قالوا لنوح، وكما سيقولون للأنبياء من بعدهم ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ أيُوصي كل قوم قومًا، هي كذلك ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾، ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾، شيء متكرر.

ثانيًا: رفض الدعوة رفضوا دعوته لحجج واهية، ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ تقليد أعمى، لا يجوز للإنسان أن يتحجج بمثل هذه الحجج الواهية، هل لأن آباءكم كانوا كذلك فأنتم تبقون على ما كانوا عليه؟

ولذلك لما جاء الموتُ أبا طالب وهو على فراش الموت والنبي ﷺ يذكره يقول: "يا عم قل لا إله إلا الله، كلمة أشفع لك بها عند الله"، وفي رواية "أحاج لك بها عند الله"، فكان عنده عبد الله بن أبي سلمة -أخو أم المؤمنين أم سلمة-، وعنده أبو جهل عمرو بن هشام، فكانا يقولان له يا أبا طالب أتترك دين الأشياخ؟ أتترك ملة عبد المطلب؟[1]

يصعب على النفوس، وهذا التقليد الأعمى هو الذي أضرَّ بالكثيرين، ولذلك

---

١ أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).

تأتي الآيات كثيرة في كتاب الله تبارك وتعالى ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾، وهكذا تأتي الآيات: أبصر، تذكر، فكر، اعقل.

ولكنه التقليد الأعمى الذي يعمي الناس عن اتباع الحق.

ثالثًا: المكر والكيد، كما قال الله -عز وجل-: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا﴾ وهذا المكر منهم في قتلهم الناقة -كما سيأتي- وفي إرادتهم لقتل نبي الله صالح صلوات الله وسلامه عليه.

وكم يخطئ الجبارون والمعاندون وينخدعون بما يملكون من قوة ومكر وخداع، وما علموا أن الله أعظم مكرًا ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، هو الذي يعلم السر وأخفى، الذي لا تنام عينه سبحانه وتعالى، ولا يغفل -عز وجل-، الذي يراهم ولا يرونه، هم يمكرون والله يمكر سبحانه وتعالى ولا يكون إلا ما يريده الله -عز وجل- عند ذلك قال لهم نبي الله صالح: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾، أي: أكون خاسرًا إذا أطعتكم، فهذا هو القول الأول.

وأما القول الثاني وهو أصح: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أي: ما تزيدونني بكلامكم هذا إلا يقينًا أنكم خاسرون، فالخسارة عائدة إليهم لا إلى صالح صلوات الله وسلامه عليه، وهذا أظهر؛ لأن في قوله: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾، إذا قلنا أن صالحًا يقول: ما تزيدونني أنا إلا خسارًا فكأنا أثبتنا لصالح بعض الخسارة وهم يزيدونه خسارة، ولكن إذا قلنا أن التخسير عائد عليهم فهم في خسارة وإلى خسارة، فهذا أظهر.

قوم صالح عليه السلام يطلبون آية:

بعد أن دعاهم إلى الله تبارك وتعالى، وملّوا دعوته قالوا: ﴿ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ فطلبوا من صالح صلوات الله وسلامه عليه أن يأتيهم بآية، فأتاهم بآية، وهي الناقة، وذكر كثير من المفسرين نقلًا عن بني إسرائيل قصة هذه الناقة، فقالوا: جاء قوم صالح إليه، فقالوا له: إذا أردت أن نتبعك؛ أرأيت هذه الصخرة العظيمة؟ قال: نعم، قالوا: أخرج لنا منها ناقة، ونحن نتبعك، ولكن اسمع: نريدها عُشَراء، يعني الآن ولدت معها فصيلها، فقال لهم صالح عليه السلام: أرأيتم إن فعلتُ أتؤمنون؟ قالوا نعم، فقام صالح وصلى ركعتين صلوات الله

وسلامه عليه، ودعا الله -عليه السلام- فانفجرت الصخرة عن ناقة عُشَراء، فآمن بعض قوم صالح، وكفر الأكثرون.

وهذا شبيه تمامًا بقصة قريش مع النبي ﷺ لما قالوا له: إن كنت صادقًا؛ فشق لنا القمر نصفين، فقال لهم نبي الله ﷺ "أرأيتم إن فعلت وانشق القمر نصفين أتؤمنون؟" قالوا: نعم، وما لنا ألا نؤمن؟ فدعا الله تبارك وتعالى، فشق الله القمر نصفين حتى رأوا جبل أبي قبيس بينهما، بين نصفي القمر، فقالوا: جئت بسحر عظيم، وهذا مصداق قول الله تبارك وتعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ أي: قوي شديد، شق القمر نصفين، وما علموا أنها الرسالة، وأنها الآيات، وليست السحر كما زعموا، وكذبوا لعمر الله تبارك وتعالى.

ولذلك قال الله -عز وجل- عنهم: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ هذا هو المشهور في كتب كثير من أهل العلم أن الناقة خرجت من الصخرة، وأما المشهور في كتاب الله وفي سنة النبي ﷺ أنها جاءتهم ناقة، ولم يذكر أنها خرجت من صخرة، ولم يُذكر أنها كانت عُشَراء، وإنما ذكر أنها ناقة ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ إذًا هي ناقة، الله أعلم بها، خرجت من صخرة أو لم تخرج من صخرة، وإنما هي ناقة، وكانت آية، وهذه الناقة عظيمة بحيث إن الناس كلهم يشربون في يوم، والناقة تشرب في يوم ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ﴾ كل لها شِرْب، هذا هو المعلوم عن الناقة في كتاب الله وسنة النبي ﷺ، وأما غير ذلك فكله الله أعلم به.

المعلوم أن هذه الناقة نسبها الله لنفسه، فقال: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ والله قد ينسب الشيء إلى نفسه، مثل روح الله، ناقة الله، بيت الله، فكلها نسب الله شيئًا إلى نفسه فهذا لتعظيمه وتشريفه، إما لأن هذه الناقة لا مالك لها من البشر، فتُنسب إلى مالكها الأصلي، وهو الله سبحانه وتعالى، وإما لأنها خرجت من صخرة كما قيل، ليس لها أب معلوم ولا أم فنسبت إلى الله لأنها لم تتطور بالخلق كما يتطور غيرها، وإنما خُلقت من غير ذكر ولا أنثى، ولذلك يلغزون، فيقولون، ثلاثة لم يكونوا من ذكر ولا أنثى، ما هذه الثلاثة؟ فيقال: ناقة صالح، وعصا موسى، وسفينة نوح، يعني لم يكن لها مثيل من قبل، فالله أعلم بهذا.

الشاهد من هذا: أن هذه الناقة لها شأن عظيم، هذا الذي نريد أن نصل إليه، فقال: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ لا تأكل من زروعكم التي زرعتموها أنتم، ولكن تأكل من أرض

الله، مما أنبته الله سبحانه وتعالى، ثم قال: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ لا تمسوا هذه الناقة بسوء، في أكلها، في شربها، في الإضرار بها، بقتلها، بعقلها، بأي سوء، و"سوء" نكرة، فتشمل أي سوء، ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ﴾ إذا مسستم هذه الناقة بسوء، ثم قال: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ قال الله تبارك وتعالى عن أولئك القوم: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾، ثم عقروا الناقة كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

عاقر الناقة:

عاقر الناقة أخبر عنه النبي ﷺ فقال: "انتدب لها رجل ذو عزة ومنعة في قومه كأبي زمعة"[1]، ولم يذكر لنا النبي ﷺ اسمه، ولكن ذكر صفته، قال: "انتدب لها رجل ذو عزة"، يعني: أنه قليل مثله، "ومنعة" يعني صاحب شهامة وقوة، ثم قال: "ومنعة في قومه" أي: له مكانة وقدر في قومه.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ والذي عقرها واحد، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿فَعَقَرُواْ﴾ فنسب العقر إلى الجميع، وقال في الأعراف: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ فنسب العقر إلى الجميع، ولم ينسبه إلى قَدَّار بن سالف أو مِصْرَع بن مُهَرِّج، وإنما نسبه إلى جميع ثمود، وذلك لرضا الجميع بقتل الناقة، ولذلك جاء عن قتادة رحمه الله قال: إنّ عاقر الناقة قال: لا أقتلها حتى ترضوا جميعًا، فجعلوا يذهبون ويسألون الناس حتى كانوا يدخلون على المرأة في خدرها، فيقولون: أترضين أن تقتل الناقة؟ فتقول: نعم، حتى سألوا الصِبْية: أترضى أن تُعْقَر الناقة؟ قالوا: نعم، فلذلك نسب الله تبارك وتعالى عقر الناقة إلى جميع ثمود، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أشنع الكفر والعناد والجبروت والجهل والعياذ بالله، وذلك أنهم **جمعوا في كلامهم هذا كفرًا بليغًا من أوجه كثيرة:**

---

١ أخرجه البخاري (٣٣٧٧٧)، ومسلم (٢٨٥٥) من حديث عبدالله بن زمعة رضي الله عنه.

أولًا: خالفوا أمر الله وأمر رسوله؛ لأنه قال: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ فهم لم يكتفوا بمسها بسوء حتى عقروها.

ثانيًا: استهزؤوا برسولهم، وذلك عندما قالوا: ﴿إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فهذا تكذيب له واستهزاء به صلوات الله وسلامه عليه.

ثالثًا: استعجلوا وقوع العذاب، فقالوا: ﴿ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

حال الكفار في كل زمان ومكان:

وهذا حال الكفار في كل زمان ومكان، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ أي: هذا حالهم كمثال من كان قبلهم، ويقول الله تبارك وتعالى عن الكفار أنهم قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهذا جهل عظيم، والمفروض أن يقولوا يا صالح إن كنت من المرسلين؛ فاسأل الله أن يهدينا، أن يرحمنا، أن يتوب علينا، بل قالوا: ﴿ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

محاولة قتل نبي الله صالح:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * وَمَكَرُوا مَكْرًا﴾، وهذه جريمة ثانية أعظم من الجريمة الأولى، فالجريمة الأولى: قتل الناقة، والجريمة الثانية التي لم يتمكنوا منها: قتل صالح صلوات الله وسلامه عليه.

قال الله تعالى على لسان أولئك القوم: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾، أي: حلف بعضهم لبعض، ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي: ندخل عليهم ليلًا، نقتله هو وأهله ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ﴾ إذًا كان له أولياء، كانت له قبيلة، وهذا يدل على أنهم كانوا يخافون منهم ويحسبون لهم ألف حساب، ولذلك قصدوه ليلًا ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾، وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ عجيب، قال بعض أهل العلم: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أنهم ما شاهدوهم؛ لأنهم جاؤوهم ليلًا، وقتلوهم ليلًا، في ظلمة.

أو يكون من باب الاستهزاء والسخرية ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أي: فيما نقول، هذا مكرهم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ هم مكروا والله مكر سبحانه وتعالى، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، هذه هي النتيجة: أن الله دمرهم سبحانه وتعالى.

وقالوا: نقتل صالحًا، فإن كان صادقًا عجلناه إلى الجنة، وإن كان كاذبًا ألحقناه بناقته، قتلوا الناقة، وقرروا أن يقتلوا نبي الله، لكن الآن التدخل من الله تبارك وتعالى، فمنع عنهم المطر تخويفًا وإنذارًا، فقال المستكبرون: إن صالحًا سبب منع المطر، وهو شؤم علينا، هو ومن معه من المؤمنين، ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾، ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ الشؤم منكم، ومثل قولهم الذي جاء إلى القرية ودعاهم إلى الله تبارك وتعالى، وجاء معه مرسلون آخرون، فدعوهم إلى الله تبارك وتعالى، قالوا: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾، ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾.

التطير عند العرب هو أن الواحد منهم إذا قصد شيئًا: سفرًا، زواجًا، تجارة، أي شيء، يأخذ طيرًا، ثم يرسله، فإذا اتجه الطير جهة اليمين قالوا: خيرًا فيتجهون إلى مقصدهم، وإذا اتجه الطير جهة اليسار؛ قالوا: شرًّا فيمتنعون عن هذا العمل، وهذا من أجهل الجهل، فالطير بهيمة لا تفهم، ولا تدري ما يريدون من الأعمال، فهو يطير حيث يشاء يمينًا أو شمالًا.

قوم صالح عليه السلام ينتظرون العذاب ويستعجلون به:

طلب قوم صالح من صالح أن يستعجل لهم العذاب، فواعدهم صالح ثلاثة أيام، وبعدها يأتيكم العذاب، وعدٌ غير مكذوب، بدأ العذاب يوم الخميس، وذلك أنهم أصبحوا فإذا وجوههم مصفرة، كلٌ يرى الثاني وجهه مصفرًا، فلما كان يوم الجمعة فإذا وجوههم محمرة، ولما كان يوم السبت؛ فإذا وجوههم مسودة، فجلسوا في أماكنهم ينتظرون العذاب، لما جاء يوم الأحد بمجرد أن أشرقت الشمس فإذا العذاب قد عمهم جميعًا.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: "وعدهم صالح صيحة من السماء من فوقهم ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت النفوس، وحقت الحقائق ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾، لا أرواح فيهم، ولا حراك بها".

وقد ذكر الله عذابهم في أكثر من آية، فقال -عز وجل-: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾، وقال في سورة هود: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾، وقال في سورة الشعراء: ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾، وقال في سورة النمل: ﴿أَأَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾، وقال في سورة فصلت: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾، وقال في سورة القمر: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾، أي: الزرع اليابس المتفتت.

قال -عز وجل- بعد أن أهلكهم وأبادهم: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا﴾، أي: صاروا بسبب هلاكهم وخرابهم ديارًا كأن لم يقيموا بها ولم يسكنوها أبدًا، وفي هذا تحذير شديد لمن يغتر بهذه الدنيا وزخرفها، والله إنه لمشهد مؤثر ما بين الحياة والموت إلا لمحة واحدة أو غمضة عين ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا﴾، كأن لم يكن ما سبق من حياة ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾، وزروع وأنهار وخير، كأن لم يغنوا فيها.

قال الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أي: نبي الله صالح، وقال: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾.

وهنا كلمهم بعد هلاكهم، مَرَّ عليهم وهم جثث هامدة، متناثرة، جاثمين، وهذا حق كما خاطب النبي ﷺ أهل قليب بدر جلس عند رأس البئر بعد أن أُلقي كفار مكة "هل وجدتم ما وعد ربكم حقًا فإنا وجدنا ما وعد ربنا حقًا؟" فالتفت إليه عمر، وقال: يا رسول الله! إنهم أموات، قال: "والله يا عمر ما أنت بأسمع لي منهم"[1]، يُسْمِعهم الله، خزيٌ في الحياة الدنيا، وعذاب نفسي قبل العذاب البدني ثم يأتي العذاب الأخروي.

موقفنا من أماكن المعذبين:

عن بني عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ بقرى ثمود، فاستسقى الناس من الآبار، وعجنوا، فأمرهم النبي ﷺ فأهرقوا القدور، وعلفوا العجينة للإبل، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عُذبوا، وقال: "إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم لا تدخلوا عليهم"[2].

---

١ أخرجه البخاري (٣٩٧٦)، ومسلم (٢٨٧٣، ٢٨٧٥).

٢ أخرجه أحمد (٥٩٤٨)، ومسلم (٢٩٨١).

وبعض الجهلة يذهب إلى تلك الأماكن ويصور ويفرح ويضحك، والنبي ﷺ نهى عن ذلك، وقال: "لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم"[1].

وعن عامر بن سعد قال: لما كان النبي ﷺ في غزوة تبوك سارع الناس إلى أهل الحِجْر يدخلون عليهم، فقال رسول الله ﷺ: "ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم؟" فقال رجل: نعجب، فقال صلوات الله وسلامه عليه: "أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك: رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم، وما هو كائن بعدكم، فاستقيموا، وسددوا، فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئًا".

الدروس والعبر في قصة صالح عليه السلام:

أولًا: دعوة الأنبياء واحدة، ومن كذَّب واحدًا فقد كذب بالجميع كما قال الله -عز وجل- ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾.

ثانيًا: العاقبة دائمًا تكون لرسل الله عليهم السلام، بعد أن يصل الطغيان إلى منتهاه، فإن الله يمهل ولا يهمل سبحانه وتعالى.

ثالثًا: من أكبر موانع قبول الحق اتباع الآباء.

رابعًا: أن الآيات مهما كانت واضحة، فإن المجرمين قد لا يهتدون بها، كما رأوا الناقة ثم لم يؤمنوا بها.

---

١ أخرجه أحمد (٤/ ٢٣١)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٨٥١)، وابن ابي شيبة في "المصنف" (٣٧٠١٢) من حديث أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه، وقال في "مجمع الزوائد" (١٠٣٢٥): "فيه عبد الرحمن بن عبدالله المسعودي وقد اختلط"، وضعفه الأرناؤوط.

قصة إبراهيم عليه السلام

إبراهيم عليه السلام

إبراهيم عليه الصلاة السلام هو أبو الأنبياء الذي قال الله تبارك وتعالى عنه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، خليل الرحمٰن.

ذُكر نبي الله إبراهيم في كتاب الله تبارك وتعالى تسعًا وستين مرة، واختلف أهل العلم في اسم أبيه، فالذي ذكره الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز أن اسم أبيه آزر، كما قال -جل وعلا-: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾، وكذلك جاء في السنة عن النبي ﷺ أنه قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول لإبراهيم عليه الصلاة والسلام: فاليوم لا أعصيك، عندها يقول إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه: يا رب إنك وعدتني ألا تخزني يوم يبعثون، وأَيُّ خزي أخزى من أبي الأبعد، فيقول الله له: إني حرمت الجنة على الكافرين»[1].

نشأة إبراهيم عليه السلام:

نشأ إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه في العراق، في بيئة وثنية، تُقدس الأصنام، وتعبدها من دون الله تبارك وتعالى، بل قيل: إنهم كانوا صابئةً يعبدون الشمس، والقمر، والكواكب، وأيًا كان؛ فعبادتهم للأصنام جاء النص عليها في كتاب الله تبارك وتعالى.

ذُكر أن أبا إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه كان نجارًا، وكان ينجر الأصنام، وكان أحيانًا يعطيها لولده إبراهيم، يأمره أن يبيعها، فيخرج بها -وهو صغير- إلى السوق، فينادي بالناس: «من يشتري ما يضر ولا ينفع»، وكان أحيانًا يذهب بها إلى الماء، فيغطس رأسها في الماء ويقول: «اشربي» متهكمًا صلوات الله وسلامه عليه.

ومن نظر في الكتاب والسنة يتبين له أن الله تبارك وتعالى لم يذكر لنا ولا النبي ﷺ شيئًا عن نشأة إبراهيم، لا عن بلده، ولا عن زمانه، ولا عن نشأته من الصغر، كيف نشأ؟ كيف

---

١ أخرجه البخاري (٣٣٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

رُبي؟ لم يُذكر شيء من هذا، وإنما أول ما ذكر عن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، هو أنه جاء وخاطب قومه في عبادتهم للأصنام.

المسلمون أحق الناس بإبراهيم عليه السلام:

انتسب إلى إبراهيم أربعُ طوائف: المسلمون، واليهود، والنصارى، والمشركون، كلُّ هؤلاء انتسبوا لإبراهيم، فهو إذًا عامل مشترك بين الجميع، فالكل يعظم هذا الإنسان صلوات الله وسلامه عليه، ولذلك نبه الله تبارك وتعالى كثيرًا في كتابه العزيز على حال إبراهيم، ومن الذي يستحق أن ينتسب إليه صلوات الله وسلامه عليه.

أما اليهود والنصارى فقد قال الله تبارك وتعالى يخاطب أهل الكتاب: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ ٱلتَّوْرَاةُ وَٱلْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، فإبراهيم عليه الصلاة والسلام ما كان يهوديًا، ولا نصرانيًا، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، فكان صلوات الله وسلامه عليه متحنفًا عن الشرك أي: منحرفًا عن الشرك إلى الإيمان.

حقيقة دعوة إبراهيم عليه السلام:

والآيات التي تبين حقيقة دعوة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه كثيرة جدًا في كتاب الله تبارك وتعالى، فمنها قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وقال جل ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وقال: ﴿وَجَاهِدُوا فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ ٱجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾.

فضل إبراهيم عليه السلام:

نبه الله تبارك وتعالى وكذا نبيه ﷺ كثيرًا على فضائل إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، فمما جاء في كتاب الله:

أولًا: الاصطفاء وتمام النعمة، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وأتم نعمته عليه كما يقول ليوسف عليه السلام: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾.

ثانيًا: وصفه الله بأنه نبي صديق، كما قال الله -جل وعلا-:﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾.

ثالثًا: وصفه الله بالصلاح، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

رابعًا: وصفه بأنه أواه حليم منيب، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾.

خامسًا: سليم القلب، قال تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

سادسًا: آتاه الله رشده وهو صغير، فضلًا من الله ومنّة، وقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾.

سابعًا: رفع الله درجته، فقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾.

ثامنًا: اتخذه الله خليلًا: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾.

تاسعًا: أنه وفّى ما عليه، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾.

وأما ما جاء عن النبي ﷺ:

وجاء عن النبي ﷺ أن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه[1].

وفي حديث المعراج: لما عُرج بالنبي ﷺ لقي إبراهيم عليه الصلاة والسلام في السماء السابعة مسندًا ظهره إلى البيت المعمور[2].

---

١ أخرجه البخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠) من حديث ابن عباس.

٢ أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٢)، واللفظ له.

دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه:

بدأ نبي الله إبراهيم دعوته بأبيه، وتلطف معه أعظم التلطف، وهذا مصداق قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، فبدأ بأقرب الناس إليه، وهو أبوه، ولم يذكر الله تبارك وتعالى لنا شيئًا عن أمه، وإنما ذكر لنا أباه، فتلطّف في الدعوة مع أبيه كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾، ولم يقلْ له: (يا أبت إنك جاهل)، وإنما جاء بعبارة لطيفة، فقال: ﴿جَاءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾، مع أن أباه كان يعبد الأصنام وينحتها، وهذه طاعة للشيطان، وهذا يُسمى بشرك الطاعة، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي: ألا تطيعوا الشيطان.

ثم قال إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه: ﴿يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ ٱلرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾، نعم، كلُّ كافر فهو ولي للشيطان، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ ٱلشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي: يخوفكم أولياءه، وقال: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ ٱلشَّيْطَانِ﴾، وقال: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا ٱلشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ﴾، وكلمة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه لأبيه هنا تضمنت -كما نرى- النصحَ، والرفقَ، واللينَ، ومحبةَ الخير، وإقامةَ الحجة على أبيه؛ لينقذه من عذاب الله تبارك وتعالى، ومن الضلال إلى الهدى، هكذا كانت دعوة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، فكيف كان رد أبيه عليه؟ ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾، إبراهيم يقول: (يا أبت.. يا أبت.. يا أبت)، وأبوه يقول: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾، ولم يقل له: (يا بُني)، قسوة يجدها الكافر في قلبه، حتى كلمة (بُنَي) لم يقلها لإبراهيم، وإنما ناداه باسمه دلالةً على القسوة التي في قلبه عليه.

ولذلك وصف الله تبارك وتعالى الكفار بأن قلوبهم قاسية: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، ثم زادت هذه القسوة فهدد بالرجم ثم زادت، فقال: ﴿وَٱهْجُرْنِي﴾، فطلب

الهجر من إبراهيم، ثم أيُّ هجر قال: ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ أي: اهجرني هجرًا طويلًا، لا أريد أن أراك، لا أريد أن أسمعك، طلبَ من إبراهيم أن يتركه وآلهته، عندها قال إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾، وهذا مصداق أمر الله تبارك وتعالى للمؤمنين في تعاملهم مع الجهال، ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾.

وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَاهِلِينَ﴾ فطبق نبي الله إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه هذا الأمر، فقال لأبيه: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾.

ثم قال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ وهذا وعد من إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، وقد وفّى صلوات الله وسلامه عليه بهذا الوعد، فقال: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلضَّالِّينَ﴾، فوفى إبراهيم، ولكن لما تبيَّن لنبي الله إبراهيم أن أباه عدوٌ لله تبارك وتعالى تبرَّأ منه، قال الله -جل وعلا-: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾، ولما استغفر إبراهيم لأبيه -وهو على شركه وضلاله وكفره- اقتدى المسلمون بإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، فاستغفروا لموتاهم من المشركين، واستغفر النبي ﷺ لعمه أبي طالب، وكان يصلي على بعض المنافقين إذا ماتوا صلوات الله وسلامه عليه، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

وقد أمر الله تبارك وتعالى المؤمنين بالاقتداء بإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَاوَةُ وَٱلْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَحْدَهُ﴾، ثم استثنى الله تبارك تعالى استغفار إبراهيم لأبيه، فقال: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ هذه مستثناة، في هذه لا تقتدوا بإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، فمنعهم الله -جل وعلا- من الاستغفار للمشركين، ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ إذًا لا تقتدوا به في هذه، وهي استغفاره للمشركين؛ لأنه إنما كان عن موعدةٍ ثم ترك ذلك إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه.

دعوة إبراهيم عليه السلام لقومه ومناظرته لهم:

المرحلة الثانية من دعوة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه هي دعوة قومه إلى التوحيد، فقال -جل وعلا- في ذكر المناظرة التي جَرَتْ لإبراهيم مع قومه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

إن موقف إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه من هذه الكواكب موقف مناظرة لا موقف نَظَر، فلم يشكَّ إبراهيم أبدًا بالله -جل وعلا-.

وكأن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه قال لقومه: تعالوا فلننظر هذا النجم هل يستحق أن يكون ربًا؟ هذا القمر هل يستحق أن يكون ربًا؟ هذه الشمس هل تستحق أن تكون ربًا؟ أفل النجم، أفل القمر، أفلت الشمس، أفل أي: غاب، ولا ينبغي لرب أن يغيب، والمناظر قد يقول شيئًا وهو لا يعتقده من باب الإلزام، ولذلك سيأتينا قول إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه لقومه لما جاءوا -وقد كسّر أصنامهم- فقالوا له: ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾، فهذا على سبيل المناظرة لا على سبيل الاعتقاد، فهو أراد أن يلزمهم وأن يقيم عليهم الحجة صلوات الله وسلامه عليه.

وفي قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ فكأن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه جلس مع قومه، فلما رأى النجم قال لهم: (هذا ربي)؟ بإسقاط الهمزة، (أهذا ربي؟) أهذا تزعمون أنه ربٌ؟ فلما غاب طلع القمر، فقال: أهذا ربي؟ فلما غاب طلعت الشمس قال: أهذا ربي؟ وهو لا يقولها على سبيل التقرير، وإنما يقولها على سبيل الاستفهام، على وجه التوبيخ والتحقير لرأيهم.

والدليل على أن إبراهيم لم يشك أمور منها:

أولًا: الاعتقاد بأن النجم ربٌ، أو أن القمر ربٌ، أو أن الشمس ربٌ كفر، والأنبياء معصومون مِنْ الكفر.

ثانيًا: إبراهيم أنكر الشرك في البداية: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، ثم قال: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾، إذًا هو في البداية أنكر عليهم أن يعبدوا غير الله تبارك وتعالى، فكيف يشك في هذه المسألة؟

ثالثًا: هذه الآية إنما كانت بعد أن أراه الله تبارك وتعالى ملكوت السماوات والأرض؛ أي: عظمة خلق الله -جل وعلا-، ثم قال: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا﴾، فالذي أراه الله ملكوت السماوات والأرض لا يمكن أبدًا أن يشك بأن النجم رب، أو أن القمر رب، أو أن الشمس رب.

رابعًا: قوله تعالى في آخر هذه الآيات: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ دَلَّ على أنه أراد أن يقيم عليهم الحجة، لا أنه اعتقد ذلك صلوات الله وسلامه عليه.

خامسًا: نفى الله الشرك عن إبراهيم في كثير من الآيات، فقال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وهذا يُسمى بنفي الكون؛ أي: لم يكن، ولن يكون أبدًا من المشركين.

هل وقع الكذب من إبراهيم عليه السلام:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾، ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾، وهنا في قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وذلك أن قومه أرادوا أن يخرجوا إلى عيدهم -كما ذكر أهل السير والتاريخ- وطلبوا من إبراهيم أن يخرج معهم، فقال ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، نظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم.

قال رسول الله ﷺ كما في الحديث الصحيح: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: في قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وفي قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وفي قوله: عن زوجته عند الملك الظالم: إنها أختي»[1].

هذه ثلاث كذبات تنسب إلى نبي الله إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، بل قد جاء في الحديث الصحيح -حديث الشفاعة- أن الناس يذهبون إلى إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه فيقولون له: أنت خليل الله، اشفع لنا عند ربك، فيقول صلوات الله وسلامه عليه: «إني قد كنت كذبت ثلاث كذبات»[2]، فهل يجوز أن يُنْسَب لإبراهيم الكذب أو لا؟

النبي ﷺ الذي هو من أعظم الناس تعظيمًا لإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه قال: «نحن أولى بالشك من إبراهيم»[3]، فنزهه، وكثيرًا ما كان يفتخر بنسبته إلى إبراهيم، بل إن الله كثيرًا ما كان يقول له: ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾، وإبراهيم نسب هذا إلى نفسه، وقال: «كذبت ثلاث كذبات» وجاء عن النبي ﷺ أنه قال: «كذب في ذات الله»، فكيف يُحمل هذا الكذب؟

أجاب أهل العلم بعدة أجوبة:

الجواب الأول: أن هذه الكذبات الثلاث إنما كانت قبل النبوة، ونهيه لهم عن عبادة الأصنام، ولذا يأتينا عندما يكسر إبراهيم الأصنام يقول قومه: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾.

إذًا هو غير معروف، هو فتى؛ أي: صغير، يقال له: إبراهيم، ولو كان قد بعث إليهم ما كانوا يقولون: ﴿فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾.

وكذا الأمر بالنسبة لقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ لأنها في قصة واحدة، وكذا في ذهابه إلى ذلك الملك، قالوا كذلك يكون قبل بعثته صلوات الله وسلامه عليه.

والجواب الثاني: إنما قال هذا من باب التورية، يقول: إني سقيم مما أراه منكم من ضلال، سقيم مما أراه منكم من باطل، ومن كفر بالله، وعبادة للأصنام التي لا تضر ولا تنفع، بل تضر ولا تنفع فيكون هذا من باب التورية لا من باب الكذب.

---

١ أخرجه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٢ أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٣ أخرجه البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وكذا قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ إنما قاله لهم من باب الاستهزاء والتحقير لهم، ولذلك قال بعدها: ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ اسألوهم، مَنْ كسرها؟ اسألوا هذا الكبير هل هو الذي كسرها أو لا؟

وأما قوله لزوجته إنها أخته، فإن هذا على سبيل دفع أعظم المفسدتين، وذلك أنهم ذكروا أن ذلك الملك إذا عرف أن لها زوجًا قتله، وأخذها لنفسه، فلذلك دفع إبراهيم أعظم المفسدتين بأخفهما، فكذب وقال: هي أختي؛ لينجو من القتل، وتنجو هي من الاغتصاب، وهذا عين العقل، وهذا هو الواجب في الشرع أن الإنسان إذا اعترضته مفسدتان -ولابد من الوقوع في إحداهما- فإنه يقدم أخفَّ المفسدتين.

فالقصد أن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه إنما قال هذا من باب دفع أعظم المفسدتين.

هدم الأصنام من سنن الأنبياء والمرسلين:

خرج قوم إبراهيم عليه السلام إلى عيدهم، وإبراهيم فيه حرقة على ما يفعله قومه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ﴾ أي: مسرعًا متخفيًا، فدخل على الآلهة، فوجدها في بهو عظيم، ومكان متسع، وقد وُضع لها الطعام، فدخل عليها، ووجد الطعام كما هو لم يتغير، فقال لهم: ألا تأكلون؟

وهذا يفعله بعض الجهال الآن يذهبون إلى المقابر ويضعون الطعام والشراب عند قبر الميت ليشاركهم في الطعام، هؤلاء يقال لهم كما قال إبراهيم لهذه الأصنام: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، فجاء إلى هذه الأصنام، فقال: ألا تأكلون؟ كلوا، وُضع الطعام لأجلكم، ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ قولوا: لا نريد، قولوا: لا نأكل، قولوا: لا نجوع، قولوا: نحن آلهة، ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ عبّروا عن رأيكم مالكم لا تنطقون؟ ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾؛ أي: كسّرها صلوات الله وسلامه عليه، فأقبلوا إليه يزفون فواجههم، وقال: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ *

قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾. وقولهم: ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾ هذه يسمونها حيدة؛ أي: حادوا عن الجواب، هو ما قال لهم: هل كان يعبدها آباؤكم أو لا؟ إنما قال لهم: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ المفروض أن يكون الجواب بنعم أو لا، لكن قالوا: ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

وهذا إقرار واعتراف منهم أنها لا تنفع، ولا تضر، ولا تسمع، ولذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ كأنهم في كلامهم محبون للحق وأنهم يتبعونه، ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾، إذًا هدَّدهم إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيكيد هذه الأصنام، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ أي: حطمهم ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾.

وهذا فيه إشارة إلى غيرة الكبير المتعال سبحانه وتعالى الذي لا يرضى أن يَعْبُد أحد غيره سبحانه وتعالى، فإبراهيم كسر جميع الأصنام إلا كبيرهم لعلهم إليه يرجعون، كأن يقول لهم: كما أن هذا الكبير غارَ مِنْ هذه الأصنام أن تعبد، فالله يغار أن يعبد غيره سبحانه وتعالى.

وهنا قال بعض أهل العلم: إنما قال هذا إبراهيم في نفسه يعني ما قالها لهم، قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ يُحَدِّث نفسه، فإذًا إما أن يكون قالها في نفسه صلوات الله وسلامه عليه، وإما أنه أسمعهم، ولذلك سيأتينا قول الله تبارك وتعالى عنهم أنهم قالوا: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ أي: هدد بكسر هذه الأصنام.

فلما رجعوا ووجدوا الآلهة مكسرة محطمة جذاذًا كما أراد إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾، ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ أي: يذكرهم بالعيب والنقص، ينتقص هذه الأصنام، هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم

أو يضرون، يتنقص هذه الأصنام ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾، وهذا الذي يريده إبراهيم، يريد أن يتكلم على أعين الناس، ولذلك لما جاء موسى لفرعون ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾، يوم العيد، ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ حتى يرى الناس.

فلما جمعوا الناس قالوا له أمام الناس: ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وأشار إلى الصنم الكبير ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾، وإن كانت لكم عقول تعقلون ما تقولون، فاسألوهم إن كانوا ينطقون، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ ٱلظَّالِمُونَ﴾، كلامه صحيح، ﴿أَنْتُمُ ٱلظَّالِمُونَ﴾، لماذا تركتم الآلهة بدون حراسة، وتركتم إبراهيم يكسرها، ﴿أَنْتُمُ ٱلظَّالِمُونَ﴾ تستحقون ما أصابكم، وهذا ما أراده إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، بأنهم كما اعترفوا أمامه ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ أرادهم أن يعترفوا أمام الناس مرة ثانية أن هذه الآلهة لا تنطق، فقامت عليهم الحجة.

وحينما أقرّوا بهذه الهزيمة، وأقام إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه عليهم الحجة؛ لجؤوا إلى القوة، وذلك أن نبي الله إبراهيم لما قال لهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾، ألزمهم أحد أمرين:

الأمر الأول: أن يقولوا: صدقت يا إبراهيم، لا ينطقون، ولا يسمعون، ولا يدافعون عن أنفسهم.

الأمر الثاني: أن يقولوا: صدقت يا إبراهيم فعله كبيرهم هذا، وفي كلا الحالتين يخرج منها إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، وهم أُلزموا واعترفوا بالأولى، فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾، ولكنهم لما أعيتهم الحجة؛ استخدموا القوة والبطش، قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾، وهذه تسمى بشريعة الغاب، شريعة الظفر والناب بالقوة، لا بالحجة، والعقل، والمنطق، ولا إقناع.

إلقاء إبراهيم في النار:

أشعلوا نارًا عظيمة، أرادوا أن يحرقوا إبراهيم عليه السلام فيها، فجمعوا حطبًا عظيمًا لحرق إبراهيم، حتى قالوا: إنهم أشعلوا نارًا عظيمة بحيث إنهم لم يستطيعوا أن يقتربوا منها

ليلقوا إبراهيم فيها من شدة حرّها، فوضعوه على آلة المنجنيق ورموه رميًا، ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾، ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَاكِرِينَ﴾، ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ ألقوا إبراهيم عليه الصلاة والسلام في النار فقال: «حسبي الله ونعم الوكيل» الله أكبر، المؤمن الصادق التقي النقي المخلص الذي امتلأ قلبه يقينًا وإيمانًا بالله تبارك وتعالى، يقول هذه الكلمة في هذا الوقت الحرج «حسبي الله ونعم الوكيل»، يرى الموت بعينيه، سيلقى في هذه النار العظيمة، «حسبي الله ونعم الوكيل».

قال ابن عباس رضي الله عنهما: حسبي الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم لما أُلْقي في النار، وقالها محمد وأصحابه لما قيل لهم: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[1].

بعد أن لجأ إبراهيم عليه السلام إلى ربه سبحانه وتعالى جاء الفتح، وجاء النصر من القوي العزيز الذي ﴿أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾، فكانت كما قال الله -جل وعلا-، فسبحان الله، لا إله إلا هو ملاذ المؤمنين، ومنجي الصالحين، النار التي أعطاها الله خاصية الإحراق سلبها منها، عندما أُلقي فيها إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه.

وقال صلوات الله وسلامه عليه: «اقتلوا الوزغ فإنه كان ينفخ النار على إبراهيم»[2]، وهو حيوان الأصل فيه الإفساد.

هجرة إبراهيم عليه السلام:

بعد أن أيقن نبي الله إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه أن قومه مصرون على ما هُمْ عليه من العناد والكفر بالله تبارك وتعالى، وعبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، حتى بعد أن أظهر الله تبارك وتعالى أمره، وغلبت حجة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه باطلَهم، وبعد أن ظهر ضعفُ آلهتهم، وسَفَهُ عقولهم، بعد هذا كله يئس منهم نبي الله إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، وفكَّر في الهجرة من هذه البلاد إلى بلد آخر يعبد الله تبارك وتعالى فيه.

---

١ أخرجه البخاري (٤٥٦٣).

٢ أخرجه الإمام أحمد "المسند" من حديث عائشة.

واختلف أهل العلم في البلد التي هاجر إليها نبي الله إبراهيم عليه السلام على قولين:

القول الأول: إنه هاجر إلى مكة المكرمة شرفها الله.

القول الثاني: إنه هاجر إلى الشام، وهو لا شك دخل الشام، ودخل مكة المكرمة.

والهجرة ذُكرت لإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه في ثلاثة مواضع:

الموضع الأول: في قول الله تبارك وتعالى عن إبراهيم أنه قال لقومه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ﴾ فاعتزلهم في العبادة، واعتزلهم كذلك في المكان.

الموضع الثاني: في قول الله تبارك وتعالى عن إبراهيم أنه قال: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾.

الموضع الثالث: في قول الله تبارك: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾، وفي قوله: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

إبراهيم عليه السلام مع النمرود:

قال الله -جل وعلا- ذاكرًا هذه القصة القصيرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ﴾.

المشهور عند أهل العلم أن هذا الرجل هو مَلِك بابل، ويقال له: النمرود أو النمروذ -بالذال المعجمة- بن كنعان، وكان من ملوك الدنيا، وذُكِرَ أن الذين ملكوا الدنيا أربعة، ملكان كافران، وملكان مؤمنان، أما المؤمنان: فسليمان صلوات الله وسلامه عليه، وذو القرنين، وأما الكافران: فهذا النمرود، والثاني بختنصّر.

وكان إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه قد جاء إلى هذا الملك يطلب الميرة؛ أي: الطعام، فناظر إبراهيم في ربه تبارك وتعالى، فقال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ لأن ذلك الرجل كان يدعي أنه رب مع الله، إله ثاني، ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، وقد ذكر أهل العلم أن مقولته: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ أراد أنه يأتي برجلين فيحكم عليهما بالموت، ثم قبل التنفيذ يسامح أحدهما، وينفذ في الآخر، فيكون الذي سامحه كأنه مات فأحياه، ويكون الذي حكم عليه بالموت قد أماته، وهذا لا شك أنه تلبيسٌ وتدليسٌ وكذبٌ،

الله يحيي من العدم سبحانه وتعالى، وهذا يلبس على الناس، ولمّا قال: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ تركه إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه إلى دليل أوضح من هذا الدليل، وذلك ليفضحه على الملأ، وليكشف عجزه عن الأول والثاني، كأنه يقول له: إذا كنت تدعي أنك تحيي وتميت، فأنت الذي تُنْشئ الخلق، وتُوجد من العدم، فأنا آتيك بأبسط منها: ائتِ بالشمس من المغرب، فلم يقل النمرود: أنا آتي بالشمس من المشرق، فليأت بها ربك من المغرب؛ وذلك أنه لو قال ذلك لظهر كذبه؛ لأنه لا يمكنه ذلك؛ لأن إبراهيم سيقول له بعدها: فإن كان الأمر كذلك؛ فأتِ بها من المغرب إذا كنت أنت الذي تأتي بها من المشرق، وأيضًا لم يطلب من إبراهيم أن يأتي بالشمس من المغرب؛ لأنه يعلم أنها سنن كونية، وأن هذه السنن لا تتغير لأجل مناظرة أمثال هذا الرجل.

قصة إبراهيم مع الملك الظالم:

قال رسول الله ﷺ: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات، ثنتين منهن في ذات الله، قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وبينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبارٍ من الجبابرة، فقيل له: إن ههنا رجلًا معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه، فسأله عنها، قال: من هذه التي معك؟ فقال: هي أختي.

ثم أتى نبي الله إبراهيم لسارة، فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك؛ فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام، ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك» يقصد الأرض التي هو فيها، وإلا فنبي الله لوط مؤمن، ولكن ليس معهم في هذه الأرض، «فأرسل إليها وقام إبراهيم يصلي» لا يملك شيئًا، لا يملك أن يقاتل هذا الجبار، ولا يملك أن يمنعه، قام يصلي، لجأ إلى الله تبارك وتعالى، وهكذا المؤمن، إذا ضاقت به الأمور؛ فإنه يلجأ إلى مفرج الشدائد سبحانه.

«ودخلت سارة على ذلك الملك فذهب يتناولها بيده» يعني: أراد أن يمسكها بيده فأُخِذَ، صارت يده كأنها خشبة لا يستطيع أن يحركها، فقال: «ادعِ الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأُطلق»، ثم تناولها الثانية، «فأُخِذَ أشد من الأولى، فقال: ادعِ الله لي ولا أضرك، فدعت الله، فأُطلق، ثم نادى بعض حجبته، فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان، وإنما جئتموني بشيطان،

أخدموها هاجر» أي: أعطاها خادمة «وأخرجوها عني»، فأتت سارة معها الخادمة إلى إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، وهو ما زال يصلي، فأومأ بيده، ماذا حدث؟ أشار وهو يصلي، فقالت: «رد الله كيد الكافر» ولم تقل رددته أنا، وإنما «رد الله كيد الكافر في نحره، وأخدم هاجر»

لو قال قائل: لِمَ قال إبراهيم إنها أختي؟ ولِمَ لَمْ يقُل زوجتي؟ خاصة وأن الملك إذا أراد أن يغتصب هذه المرأة لا يختلف الأمر عنده أختًا كانت أو زوجة، فإنه سيغتصبها، فهل إذا كانت أختًا سيمتنع، وإذا كانت زوجة سيغتصبها؟

ذكر أهل العلم أن الفرق كما وجدوه أيضًا في كتب أهل الكتاب هو أن ذلك الرجل كان إذا عرف أن لامرأة أعجبته زوجًا قتله واغتصبها، فأخف الضررين أن يغتصبها ولا يقتل إبراهيم عليه السلام. وقيل: يقتله غيْرة؛ لأنه يريدها له. وقيل: كذلك أنه كان من دينه، أنه لا يقرب امرأة حتى يقتل زوجها، فقول إبراهيم إذًا صلوات الله وسلامه عليه: «إنها أختي» حتى يسلم من القتل، لا أن تنجو هي من الاغتصاب أو عدمه؛ لأن هذا لم يكن سيؤثر في ذلك الأمر.

وهذا الكذب جائز؛ لأنه إذا تعارضت مفسدتان -مفسدة الكذب ومفسدة القتل- فلا شك أن مفسدة الكذب أهون من مفسدة القتل.

غيرة النساء:

كانت سارة عاقرًا، فلما أهداها الملك هاجر أهدتها لإبراهيم، ليتسرّها؛ أي: ليجامعها، فقربها إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، فأنجبت له إسماعيل، فوقعت الغيرة في قلب سارة، عند ذلك خرج إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه بهاجر وابنها إسماعيل مهاجرًا أيضًا، أخذهما إلى مكة، وهذا يُقَرِّب أن إبراهيم إنما هاجر في بداية الأمر إلى الشام، ثم بعد ذلك هاجر بأَمَتِهِ هاجر وبولده إسماعيل إلى مكة.

ترك إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه أمته هاجر وولده إسماعيل في مكة، ويذكر لنا الإمام البخاري هذه القصة في صحيحه[1].

١ صحيح البخاري (٣٣٦٤)

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أول ما اتخذ النساء المِنْطَق من قِبَلِ أم إسماعيل، اتخذت منطقًا لتعفي أثرها عن سارة، لشدة غيرة سارة منها، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت؛ أي: الحرام، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، ولم تكن زمزم موجودة في ذلك المكان، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر وسقاء فيه ماء فقط، ثم قفّى منطلقًا، تركهما وانصرف، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا تردد عليه، وهو منطلق عنها وجعل لا يلتفت إليها، عندها أدركت شيئًا معينًا، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، يأمره أن يترك ولده، أول ولد له مع أمه في هذا المكان القفر مع جراب من تمر وسقاء من ماء فيستجيب، ما صار خليلًا للرحمٰن إلا بهذا، قالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، الله أمرني بهذا، قالت: إذًا لا يضيعنا.

الله أكبر، يقين، صدق عند هذه المرأة عجيب، وتوكل على الله لا تكاد تجده عند الرجال، ومن كان الله معه؛ فلا شك أن الله كافيه سبحانه وتعالى، ومن يتوكل على الله فهو حسبه -جل وعلا-، إن التوكل على الله فيه راحة للنفس وطمأنينة قلما يجدها الناس من غير المتوكلين على الله -جل وعلا-.

ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية، حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾، ثم انصرف صلوات الله وسلامه عليه.

وجعلت أم إسماعيل ترضعه وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفدَ الماء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوَّى من العطش، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه بهذا الوضع، فوجدت الصفا أقرب جبل من الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا، فلم ترَ أحدًا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف ذراعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، وكان واديًا، فكانت تجري فيه حتى تصعد الوادي، ثم أتت المروة، فقامت عليها، فنظرت هل ترى أحدًا، فلم ترَ أحدًا، ففعلت ذلك سبع مرات، ترجع بين الصفا والمروة، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فذاك سعي الناس

بينهما»، قال: فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا، فقالت: صهٍ، تريد نفسها مع أنه لا يوجد من تسكته، وإنما تُسكت نفسها، تحدث نفسها.

ثم قالت قد أَسْمَعْتَ إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم -عند الصبي الصغير -، فبحث بعقبه أو قال بجناحه، حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه -أي: تمنع الماء من أن ينتشر، تعمل له مثل الحوض-، وتقول بيدها هكذا، -يعني: تَزُمُه ولذلك سمي زمزم-، ثم قال: وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف، -كلما غرفت بالسقاء كلما فار الماء-، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم» أو قال: «لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينًا معينًا» قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة، فإن هاهنا بيت الله يُبنى يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيّع أهله سبحانه وتعالى.

قال ابن عباس: وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول، فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جُرْهُم، أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائرًا عائفًا، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، وعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، وإن هذا الطائر ليدور على ماء، فأرسلوا جريًّا أو جريين، فإذا هم بالماء، فرجعوا وأخبروهم بأن في هذا المكان ماء، فأقبلوا إلى الماء، قال ابن عباس: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن نجلس عندك، -وهذه من أخلاق العرب، استأذنوها وهي امرأة ضعيفة معها ولد رضيع، وهم جماعة كثيرة، ومع هذا يستأذنونها-.

قالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء -هي إلى الآن تخشى قلة الماء، وإنه بالكاد يكفيها وولدها- قالوا: نعم.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس» يعني: جاءها الذي يؤنسها، وهذا من رحمة الله تبارك وتعالى.

قال ابن عباس: فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم، واستقروا في هذا المكان حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشبَّ الغلام، وتعلم العربية منهم.

إبراهيم عليه السلام يؤمر بذبح ابنه:

وفي هذه الأثناء حين كبر إسماعيل قليلًا، وتمكن حبه من قلب إبراهيم والده صلوات الله وسلامه عليه؛ أراد الله -جل وعلا- أن يمتحن إبراهيم، وذلك لتقديم محبة ربه وخُلّته التي لا تقبل المشاركة ولا المزاحمة؛ لأن الخلة أعلى أنواع المحبة، ولذلك قال النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن صاحبكم خليل الله»[1].

إن الله تبارك وتعالى أمره أن يذبحه كما قال الله عن إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾، وهذه السن -تقريبًا- هي السن التي يكون فيها الولد أحب شيء إلى والده؛ لأنه بدأ يمشي معه ويذهب ويجيء ويساعده، كما قال أهل العلم: ذهبت مشقته وجاءت منفعته.

جاء إبراهيم إلى ولده وقال: ﴿يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَٱنْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾، هكذا جاءني الأمر من الله -جل وعلا-؛ لأن رؤيا الأنبياء حق، والشيطان لا تسلط له على الأنبياء؛ لأن الحلم من الشيطان، والرؤيا من الله، والشيطان قد عصم اللهُ الأنبياءَ منه، فكل ما يراه الأنبياء في منامهم فهو وحيٌ من الله تبارك.

﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّابِرِينَ﴾ خضعا لأمر الله -جل وعلا-، وانقادا له، ووطنا نفسيهما على القبول، مع أنه أمر مزعج لا تكاد النفوس أن تصبر عليه أو أن تصبر على أقل منه، ولكن:

وإذا كانت النفوس كبارًا ... تَعبتْ في مرادها الأجسام

وذلك أن نفس إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ونفس إسماعيل صلوات الله وسلامه عليه كانتا من النفوس الكبار عند الله -جل وعلا-، ولذلك قال الله -جل وعلا-: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، ويقول الله -جل وعلا-: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ عند ذلك جاء الفرج من الله تبارك وتعالى ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّؤْيَا﴾ صدقتها بقلبك، وصدقتها بعملك وهذا وقع لإبراهيم ولولده الذي أراد أن يذبحه، حصل لهما الأجر والثواب والشرف والقرب من الله تبارك وتعالى لاستسلامهما لأمر الله -جل وعلا-، عندها قال الله

---

١ أخرجه البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، وهو أيضا في الصحيح عن جندب وابن عباس وابن مسعود.

تبارك وتعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ لأن الذبح الآن لا فائدة منه، ولا محصلة من ورائه؛ لأن مرادَ الله قد تحقق، وودَّ إبراهيم قد صفا لله -جل وعلا-، فصار بعد ذلك سفك الدم وإزهاق الروح لا فائدة منه ولا معنى له، وذلك أن الله تبارك وتعالى لا يريد تعذيب عباده، ولكنه يريد أن يبتليهم سبحانه وتعالى، وقد ابتلى إبراهيم وحقق الابتلاء مراد الله -جل وعلا- وجاء نفعه، وظهر أثره وتحققت النتيجة، إذًا لا داعي للذبح بعد ذلك ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

وصارت بعد ذلك سنة للمسلمين الذين يتبعون ملة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه أن نذبح في الأضحى في كل سنة كما فدى الله ولد إبراهيم من الذبح.

حديث ضيف إبراهيم:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ضيوف غرباء دخلوا على إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، رآهم واستغربهم ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾، ولكن لم يمنعه هذا من أن يذهب إلى أهله ويأتيهم بعجل سمين، وقربه إليهم ليأكلوا، فلم يأكلوا، فتعجب منهم صلوات الله وسلامه عليه، فأخبروه بأنهم ملائكة الرحمٰن سبحانه وتعالى، وذلك أن الملائكة خُلقوا من نور، وجعل الله لهم القدرة على التشكل، تتشكل الملائكة على صورة الآدميين، كما تشكل جبريل على صورة رجل جاء يسأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان[1].

وهنا تشكلت الملائكة لإبراهيم، على صورة بشر، وتشكلت الملائكة للوط عليه الصلاة والسلام على صورة بشر، وتشكل ملك الموت لموسى على صورة بشر[2]، وهكذا تتشكل الملائكة كيف شاءت.

---

١ أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأيضا أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

٢ أخرجه البخاري (١٣٣٩)، ومسلم (٢٣٧٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال ابن القيم رحمه الله: في هذه الآية ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ مدح من الله -جل وعلا- لإبراهيم من أوجه:

أولًا: وصف ضيوفه بأكرم وصف، فقال الله -جل وعلا-: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ إذًا ضيوف إبراهيم كانوا مكرمين، إما من قول الله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ أي: عن الملائكة، أو وصفهم بمكرمين؛ أي: بما قام به إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه من الإكرام لهم.

ثانيًا: قوله: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ ولم يذكر لهم استئذانًا، وإنما قال: ﴿دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ قال ابن القيم: مما يدل على أن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه كان مضيافًا، وكان بيته مفتوحًا للضيوف.

ثالثًا: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ والروغان هو: الذهاب بسرعة وخُفية حتى لا يزعج ضيوفه صلوات الله وسلامه عليه.

رابعًا: ذهب إلى أهله، فجاء بالضيافة مباشرة، ولم يقل: ثم جاء بعجل سمين، مما يدل على أن الضيافة كانت عنده جاهزة صلوات الله وسلامه عليه، وذلك لكثرة دخول الضيوف عليه.

خامسًا: جاءهم بعجل سمين، وهذا من كرم الضيافة.

سادسًا: ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾، لم يقل إيتونا بعجل، لا بل أكرمهم بنفسه، ثم كذلك جاء بالعجل كاملًا.

سابعًا: قرّبه؛ أي: بنفسه كذلك، وأيضًا قربه ولم يقربهم، لم يقل لهم: تفضلوا، وإنما جاء ووضعه أمامهم لشدة إكرامه لهم حتى لم يكلفهم بالقيام من مكانهم.

ثامنًا: لما وضعه أمامهم، قال: ألا تأكلون؟ وهذا من التلطف مع الضيف، ولم يقل لهم: كلوا يأمرهم أمرًا، وإنما قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، يتلطف معهم صلوات الله وسلامه عليه.

تاسعًا: ثم إنه خافهم، صلوات الله وسلامه عليه، ولكنه لم يظهر لهم هذا الخوف من أدبه مع ضيوفه صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

صفة إبراهيم عليه السلام:

قال النبي ﷺ في صفته: «أتاني الليلة آتيان فأتياني على رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولًا وإنه إبراهيم عليه السلام»[1].

وأخبر النبي ﷺ -كما في البخاري- أنه أشبه الناس بإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، وذلك أنه وصف موسى، ووصف عيسى، فلما قيل له: صِفْ لنا إبراهيم، قال: «أشبهكم به صاحبكم»[2]، يعني نفسه صلوات الله وسلامه عليه.

إبراهيم عليه السلام وإحياء الموتى:

قال الله -جل وعلا-: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي ٱلْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي ٱلْمَوْتَى﴾ سؤال من إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، سأل ربه -جل وعلا- مسألةً، وهي أن يريه كيف يحيي الموتى، فقال الله له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ أني أحيي الموتى؟ ﴿قَالَ بَلَى﴾ وهذا السؤال من الله لا على سبيل الاستفهام؛ لأن الله تبارك وتعالى ما اختار إبراهيم إلا على علم، ومدحه الله مدحًا لا يكاد يوصف في كتابه العزيز، وأمر باتباع ملته في أكثر من آية: ﴿فَٱتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، فالله تبارك وتعالى سأله ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ ألست آمنت وانتهى الأمر؟ قال: بلى يا رب، ولكن أردت شيئًا آخر، ماذا تريد يا إبراهيم؟

قال: ﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، قال أهل العلم: أراد أن ينتقل من علم اليقين إلى عين اليقين، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾، هذا إيمان قلبي، ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ أي: في قلوبكم، وتعرفون صفتها وتؤمنون بوجودها، ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾.

والمسألة واضحة أن سؤال إبراهيم لم يكن عن شك، بدليل أنه سأل عن الكيف،

---

١ أخرجه البخاري (٣٣٥٤) من حديث سمرة رضي الله عنه.

٢ أخرجه البخاري (٣٣٩٤)، ومسلم (١٦٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه أيضا مسلم (١٦٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولم يسأل عن القدرة، لم يقل: رب هل تستطيع أن تحيي الموتى؟ ولكن سأل عن الكيفية، فقال: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ ٱلطَّيْرِ﴾، ما هذه الطيور؟ أنواع هذه الطيور لا تُعلم، ولا فائدة من معرفتها؛ لأنه لو كان ثَمَّ فائدة من معرفتها لذكره الله لنا سبحانه، المهم العبرة، ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ ٱلطَّيْرِ﴾ يعني: أي طير ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾؛ أي: اجمعهن ثم قطعهن ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، يعني قطعها وضع جزءً من هذا الطائر على هذا الجبل، وجزءً منه في ذاك الجبل، وكذلك الطائر الآخر، وهكذا فرّقْ هذه الأجزاء على هذه الجبال، ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ﴾ ادعُ هذه الطيور ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ يعني: يعيد الله خلق هذه الطيور مرة أخرى سبحانه وتعالى، والله على كل شيء قدير إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون.

أولاد إبراهيم عليه السلام:

ذُكر أن له أولادًا كُثر، أكثر من سبعة أولاد، وقيل: ثمانية أولاد، والله أعلم، لكن المشهور إسحاق من سارة وإسماعيل من هاجر.

الدروس والعبر المستفادة من قصة إبراهيم عليه السلام:

الفائدة الأولى: أننا مأمورون باتباع إبراهيم أمرًا خاصًا ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ﴾، وذلك مما هو عليه من التوحيد والأصول والعقائد والأخلاق، ولم يستثن الله -جل وعلا- شيئًا أبدًا، لك في إبراهيم أسوة حسنة إلا في شيء واحد فقط: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ﴾ هذه ليس لكم فيها أسوة؛ لأن هذا نُسخ ومُنع، كان مأذونًا لإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه أن يستغفر لأبيه، ثم منعه الله تبارك وتعالى من ذلك.

الفائدة الثانية: في قصة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه من أصول المناظرة، وذلك لما ناظره الرجل الذي يدعي الألوهية.

الفائدة الثالثة: إن من نعمة الله تبارك وتعالى على عبده، أن يلهمه شكر هذه النعم، ولذلك قال إبراهيم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾، والإنسان إذا أنعم الله عليه يتذكر هذه النعم، ويقتدي بنبي الله إبراهيم، فيحمد الله -جل وعلا- على ما ينعم عليه به.

الفائدة الرابعة: أن أفضل الوصايا ما وصى بها إبراهيم بنيه: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَى لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

الفائدة الخامسة: كرم الضيافة، وهو ما وقع لإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه كما تقدم في قصة الملائكة.

الفائدة السادسة: مشروعية السلام، فلما دخلت الملائكة على إبراهيم قالوا سلامًا، قال سلام، فالسلام مشروع، بل مستحب أن الإنسان يبدأ أخاه بالسلام.

الفائدة السابعة: بيان إكرام الله لأوليائه، لما وُهِب لإبراهيم وسارة ولدًا على الكبر، وهذا من نعمة الله -جل وعلا- كما وهبهما إسحاق ووهب إبراهيم كذلك إسماعيل من أَمَتِه هاجر.

الفائدة الثامنة: التأمل في الكون يهدي الإنسان إلى ربه -جل وعلا-، إلى وجود خالق.

الفائدة التاسعة: مشروعية الهجرة، فإذا أوذي الإنسان في سبيل الله، ولم يستطع أن يظهر دينه؛ فعليه أن يهاجر أسوةً بنبي الله إبراهيم، بل وبأنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا.

الفائدة العاشرة: الثقة بنصر الله وإن طال الأمد، لابد أن تثق بنصر الله -جل وعلا-، وإبراهيم أُلقي في النار، ويقول: «حسبي الله ونعم الوكيل»، وجاء النصر من الله -جل وعلا-.

الفائدة الحادية عشرة: المسلم إذا أراد أن يناظر لابد أن يكون عنده حجة، ليس لكل أحد أن يناظر بدون حجة وبدون برهان، بل استعد بحجتك وبرهانك بالعلم وناظر من شئت بعد ذلك.

الفائدة الثانية عشرة: من يتق الله يجعل له مخرجًا كما فعل الله تبارك وتعالى بأم إسماعيل وولدها لما تركهما إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه في مكة، قالت: إلى من تتركنا، فما رد عليها، ثم قالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذًا لا يضيعنا، ثقة بالله -جل وعلا-، وما ضيعهم سبحانه وتعالى.

الفائدة الثالثة عشرة: رؤيا الأنبياء حق، وذلك لما رأى إبراهيم في المنام أنه يذبح ولده امتثل واستجاب ولده إسماعيل صلوات الله وسلامه عليه.

الفائدة الرابعة عشرة: الابتلاء والامتحان والاختبار من الله -جل وعلا- ليس المقصود منه المشقة والإيذاء، وإنما كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ إذًا الاختبار ليس للمشقة، وليس للأذى وإنما حتى يعلم الله تبارك وتعالى الصابرين، ويعلم الصادقين سبحانه وتعالى.

الفائدة الخامسة عشرة: الأنبياء أشد الناس بلاءً، وإذا أحب الله عبدًا ابتلاه سبحانه وتعالى.

ختامًا

الأنبياء عليهم السلام هم أشرف الخلق، وأهداهم، وأكملهم دينًا وعلمًا، وقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيَّه محمدًا ﷺ أن يقتدي بهم فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقد امتثل ﷺ؛ فاهتدى بهدي الرسل قبله، وجمع كل كمال فيهم، فاجتمعت لديه فضائل وخصائص فاق بها جميع العالمين، وكان سيد المرسلين، وإمام المتقين ﷺ.

والأنبياء كلهم من نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ جاؤوا برسالة واحدة عظيمة الشأن جليلة، وهي: توحيد الله عز وجل، فكلهم سعوا لتحقيق هذه الغاية السامية من الخلق وإن اختلفت شرائعهم كما قال ﷺ: (الأَنْبِيَاءُ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ). أخرجه البخاري.

وقد ورَّثونا أجلَّ ما يُوَّرث وهو العلم كما قال ﷺ: (...وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثُوا دينارًا ولا درهمًا، ورَّثُوا العِلمَ فمن أخذَه أخذ بحظٍّ وَافر) أخرجه أبو داود وصححه الألباني.

فحريٌّ بذوي الألباب والعقول أن يسيروا على إثرهم، ويقتدوا بهديهم؛ فبمنهاجهم تُحصَّلُ سعادة الدارين.

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على محمد وآله وصحبه.

نادي النورين

١٤٤٥هـ

حقيقٌ بالإنسان أن ينفق ساعاتِ عمره بل أنفاسَه فيما ينال به المطالب العالية، ويخلص به من الخسران المبين، وليس ذلك إلّا بالإقبال على القرآن وتفهُّمه وتدبُّره واستخراج كنوزه، و إثارة دفائنه، وصرف العناية إليه، والعكوف بالهمّة عليه؛ فإنّه الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد، والمُوصِل لهم إلى سبيل الرّشاد. فلا يُقْتبَس النور إلّا من مشكاته، ولا تُسْتثمَر المصالح إلّا من شجر اته.

-ابن القيم رحمه الله بتصرف.

نادي النورين

١٤٤٥هـ